«الهدف الاستعمارى للحملة الفرنسية على مصر» «والسياسة الإسلامية لبونابرت»

على الرغم من كل ما نشره أولئك المنتمون إلى بلدهم ودينهم من كتابات ووثائق تدين بدعة – إن لم تكن صفاقة – الأحتفال بالحملة الفرنسية على مصر، فما زلنا نطالع أصوات بعض المدافعين عن هذه الجريمة التاريخية التى تعد من أكبر الكوارث التى أصابت مصر فى العصر الحديث، إن لم تكن أكبرها على الإطلاق؛ لأنها قد استباحت البلاد للتغريب والنهب من جهة، كما قامت من جهة أخرى باجتثاث الصحوة الإسلامية التى كان الأزهر يتزعمها، فسحقتها بجبروت أعمى، ودنست الأزهر الشريف واجتزت رؤوس مشايخه وعلمائه وطلابه فى سابقة تعد الأولى من نوعها فى تاريخ بلدنا.

وإلى حفنة الخارجين عن أبسط روابط الانتماء والغيرة لدينهم وبلدهم ودماء شهدائه نقدم بعض المقتطفات من مقالين للكاتب الفرنسى فرنسوا شارل–رو François Charles-Roux ، وهو من مؤرخى الحملة وواحد من المدافعين عنها. والمقال الأول بعنوان: «الهدف الاستعمارى للحملة الفرنسية على مصر». وقد نشر فى مجلة الدراسات النابليونية» المجلد الثانى والعشرين، السنة الثالثة عشرة يناير – يونيو ١٩٢٤؛ والمقال الثانى بعنوان: «السياسة الإسلامية لبونابرت»، وقد نشر فى نفس المجلة التاريخية المتخصصة، فى السنة الرابعة عشرة، المجلد الرابع والعشرين يناير – يونيو ١٩٢٥ ويقع فى ٢٥ صفحة.

ومع مراعاة أن المؤرخ فرنسوا شارل–رو من المدافعين عن نابليون وحملاته الدامية، إلا أن الحقائق التى يوردها دامغة بذاتها، ولعلها تعيد بعض الحياء إلى دماء شرذمة المدافعين عن هذه المجزرة التاريخية..

بعد التقديم لهذه الحملة – التى أحتل طوالها الفرنسيون هذا البلد وحكموه – يبدأ فرنسوا شارل–رو بتناول الإعداد لها فى المقال الخاص بالهدف الاستعمارى فكتب قائلاً:

وعنوانه الفرعى هو : « إعداد ورحيل لجنة العلوم والفنون – ١٧٩٨ » ويقع فى ١٨ صفحة.

« ففى الحادى والثانى عشر من فنتوز العام السادس (الأول والثانى من مارس عام ١٧٩٨)، وعلى مدى جلستين ضربت السرية المطلقة على محاضرهما قامت الإدارة التنفيذية للجمهورية الفرنسية باتخاذ قرار بتأجيل مشروع إنزال قواتها على السواحل البريطانية، كما أقرت مبدأ إرسال حملة إلى مصر أسندت قيادتها إلى الجنرال بونابرت.

« وهذا القرار المفاجىء وغير المتوقع، من جانب الفرنسيين ومن جانب الأعداء على السواء، لم يكن فى الواقع إلا التنفيذ المتأخر لمشروع تم وضعه من فترة بعيدة وتم عرضه عدة مرات سواء أيام الملكية البائدة أم على عهد الحكومة الجمهورية[١]. وهذا المشروع الذى كانت أهميته السياسية المباشرة والملحة قد دفعت حكومة الإدارة إلى تبنيه وإنجازه، لم يكن مجرد عملية حربية أو مناورة استراتيجية واسعة المدى: لقد كان عملية سياسية واقتصادية وعسكرية فى آن واحد. بل لقد كان مشروعًا حقيقيًا لإنشاء مستعمرة.

« ولقد وصلته هذه الفكرة عن طريق مذكرة تقدم بها تاليران **Talleyrand**، الذى كان – بما لا يدع مجالاً للشك – على دراية واسعة بالمبادرات الأولى الأساسية المتعلقة بمصر، وملمًا بالرغبة البعيدة المدى للاستحواذ على هذا البلد ومشروع غزوه وضمه. وكانت هذه المذكرة المحتوية على المشاريع والخطط والمراسلات التى جمعها تاليران[٢] ، تعرض فكرة موضوع الحملة الفرنسية على مصر للمسئولين بالإدارة

---

(١) راجع: « **جذور الحملة الفرنسية على مصر** » بقلم فرنسوا شارل- رو، باريس، بلون ١٩١٠ وكتاب « **انجلترا، قناة السويس ومصر فى القرن الثامن عشر** » لنفس المؤلف، باريس، بلون ١٩٢٢.

(٢) خاصة من المذكرة التفصيلية التى رفعها إليه مجالون القنصل العام لفرنسا فى مصر، منذ بضعة أيام.

كمشروع إقامة مستعمرة ذى فائدة مزدوجة لصالح الشعب المستَعْمِر والبلد الذى سيُستَعْمَر:

« لقد كانت مصر سابقًا مقاطعة من مقاطعات الجمهورية الرومانية، ويجب أن تصبح مقاطعة للجمهورية الفرنسية. لقد كان غزو الرومان يمثل مرحلة الاضمحلال لهذا البلد الجميل: وسيكون الغزو الفرنسى مرحلة ازدهاره. فلقد قام الرومان بنهب مصر من أيدى ملوك اشتهروا بالفنون والعلوم... والفرنسيون سيستولون عليها من أيدى أبشع طغاة وجدوا على الإطلاق »[1].

وبعد هذه الفقرة التى أوردها فرنسوا شارل-رو من التقرير المرفوع إلى تاليران، يواصل مقاله قائلاً: « كما أنهم سيقومون بإنعاش الزراعة والصناعة والتجارة، وسيعيدون فتح التبادلات مع أوروبا والهند القديمة عن طريق السويس وبذلك سيقومون بعمل ثورة حقيقية فى الحياة الاقتصادية لشعوب الغرب، كما سيزودون فرنسا بتعويض فقدها المؤكد إن عاجلاً أو آجلاً – للمستعمرات الأمريكية. إن العمل على جعل مصر تابعة لفرنسا وإحياء مشعل الحضارة الذى انطفأ فيها، وإعادة الرخاء بسحق البربرية الطاغية هو تحديداً هدف الحملة على مصر فى الوثيقة التى قامت الإدارة بدراستها واتخاذ القرار بشأنها.

« وفيما بعد، بعد الجلاء عنها، عندما قام أحد الأعضاء المدنيين لبونابرت بكتابة المقدمة التاريخية الرائعة «**وصف مصر**»[2]. التى تكفى وحدها بتخليد ذكرى الحملة الفرنسية على مصر، كتب فورييه Fourier قائلاً: إنه قد ساهم فى هذه الحملة من نفس منطلق الأهداف الاستعمارية والإحياء الاقتصادى والعمل الحضارى. وإلى جانب الأهداف السياسية التى أدت إلى اتخاذ قرار قيام هذه الحملة – وهى إصابة

---

(١) راجع نص هذه المذكرة فى «**الحملة على مصر**» بقلم س. دى لاجونكيير، المجلد الأول، باريس شارل لافوزيل.

(٢) لقد بدأت طباعة «**وصف مصر**» عام ١٨٠٩ وانتهت عام ١٨٢٥. وتتضمن أول طبعة ٩ أجزاء من القطع الكبير من النصوص و١٤ جزءا من اللوحات والخرائط والتصميمات والحفر.

انجلترا ومعاقبة بكوات المماليك لتنكيدهم على التجار الفرنسيين – يضيف فورييه قائلاً: « مع ضرورة الأخذ فى الاعتبار بالمزايا الناجمة عن الاستقرار الدائم ». ويوضح فرنسوا شارل – رو هذه المزايا قائلاً: « وهذه المزايا كانت فرنسا ستحصل عليها من الزراعات التى كانت تمارس فى مصر كالقمح والحبوب والأرز ومختلف الفواكه، ومن تلك المحاصيل الأكثر فائدة – والتى سيؤدى إليها إدخال نظام لاستخدام مياه النيل بشكل أفضل–: قصب السكر والكتان والنيلة وتصدير المنتجات التى تحصل عليها مصر من الخارج كالقهوة والعطور من شبه الجزيرة العربية وبودرة الذهب والعاج ومنتجات أخرى قادمة من أفريقيا، وبضائع من الهند، واستيراد المنتجات التى تنقص مصر والتى تقوم بها الصناعة الفرنسية كالمنسوجات والنبيذ والحديد والرصاص والخشب إلخ... إن الاستغلال العقلانى لهذه الموارد المتعددة سيتطلب أعمالاً ستؤدى إلى ازدياد ثروة البلد ومنها أعمال الرى بالنسبة للزراعة، وبالنسبة للتجارة، ربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق قناة صالحة للملاحة. كما سيتم إقامة أو توسيع علاقات تجارية مع شبه الجزيرة العربية وفارس والهندوستان وأفريقيا. إن قارة أفريقيا ستفتح للاستغلال.. وما أن تزدهر وتتجدد بفضل حكومة عاقلة ومستنيرة فإن مصر سوف تشع على كافة البلدان المحيطة بها ».

وبعد أن أوضح المؤرخ الفرنسى الجانب السياسى الاستعمارى للحملة ينتقل إلى « لجنة العلوم والفنون » التى اصطحبها نابليون معه لنهب وسرقة النفائس والآثار لإثراء متاحف فرنسا... « إن عظمة مصر الماضية وازدهار حضارتها القديمة، والقيمة الفنية والأهمية التاريخية لآثارها التى مازالت تشهد على ذلك، كانت موضوعات تثير خيال بونابرت بشدة إلى جانب كونها موضوعات يألفها. فلم تكن بعيدة عن الانجذاب الذى يشعر به تجاه وادى النيل. وقد كان يرى فيها وسيلة لازدياد مجد الحملة بإضافة اكتشافات مفيدة للفن والعلم إلى جانب الأهمية السياسية للحملة التى سيطرت على فكرة وحلم بها وناقشها عند لقائه مع تاليران عند قرب إنتهاء الحملة على إيطاليا. فمنذ هذه الحملة على أى حال قد بدأت فكرة استخدام الحرب

فى إثراء التراث الفنى والعلمى لفرنسا وإن كان بصورة متواضعة فى البداية، وذلك عن طريق إنشاء «لجنة العلوم والفنون» التى كان مونج Monge عضواً بها. ولقد كانت مهمة مونج فى إيطاليا هى اختيار القطع الفنية التى ستزين متاحف فرنسا (...).

«وهكذا توصل – عند ميله إلى شن حملة على مصر، وفور أن تقرر ذلك بالفعل – إلى إضفاء الهدف العلمى والفنى عليها، وأن يزود الجيش بلجنة العلوم والفنون حيث كانت كافة التخصصات ممثلة بها».

ثم يتساءل فرنسوا شارل–رو قائلاً: «ترى ما كانت مهمة هذه اللجنة؟» ويسارع بالرد فى نفس السطر قائلاً: «أولاً وقبل أى شىء مساعدة الجيش ووضع العلم فى خدمة الحرب والحكومة، والإسهام فى تنظيم وإدارة البلد الذى تم غزوه؛ وإلى جانب ذلك، على حد قول أحد الذين ساهموا فيها»[1]: «إدخال فنون أوربا إلى شعب نصف همجى ونصف متحضر، بلا صناعة وبلا تنوير علمى»؛ وأخيراً الكشف لأوروبا عن مصر القديمة، ومصر آنذاك، مصر الفراعنة واليونان والرومان ومصر المماليك».

وقبل أن يتناول المؤرخ أعضاء «لجنة العلوم والفنون» وكيفية اختيارهم، وخاصة مونج، رئيس هذه اللجنة، نراه يكشف عن جانب آخر لهذه الحملة المشئومة على مصر، ألا وهو جانب التنصير. فحتى قبل أن يصدر القرار الرسمى ببدء الإعداد للحملة، كان نابليون «قد اختار وعين مونج وأرسله إلى الفاتيكان، قبل ذلك بقليل، ليأخذ من هناك، من لجنة التنصير، مطابع اللغات اليونانية والعربية والسريانية بكامل هيئتها من معدات وأحرف وعمال، إضافة إلى الخرائط والكتب والوثائق» (...).

«وكان بونابرت يود فعلاً أن تضم اللجنة كافة التخصصات التى يمكنها أن تفيد فى الأعمال العلمية والفنية والأدبية. بل لقد تمادى فى طموحاته بأنه كان يريد

---

(١) چومار: **«ملاحظات حول كونتيه»** باريس ١٨٤٦.

من هذه اللجنة أن تقدم للجيش وللمستعمرة التى كان يزمع إنشاءها كافة الموارد التى تلطف وتجمل الحياة. وكم تمنى أن يصطحب الشاعر ديليل Delille، والموسيقى ميهول Méhul، والمغنى لوا Loy. وبدلاً من ديليل المتقدم فى السن، وميهول المحب للبقاء فى المنزل، ولوا الذى خشى أن يصاب بالرشح، فقد اصطحب بونابرت كل من بارسيفال جرانميزون Parseval-Grandmaison، وريجيل Riguel وفيللوتو Villoteau الذى كان البديل الاحتياطى للوا فى الأوبرا. أما الأكاديمى أرنو Arnaud الذى اضطر إلى التوقف فى مالطة، فقد كان يعوض ما ينقص بارسيفال ليمثل مجال الأدب»...

ويختتم فرنسوا شارل-رو مقاله بذلك القرار الذى ظل «سرى للغاية» لفترة ما والذى كان يعلن ويحدد الهدف والغرض من المهمة المسندة إلى نابليون قائلاً: «إن القائد الأعلى لجيش الشرق كما يوضح القرار فى المادة ٣ سوف يشق قناة السويس ويتخذ الإجراءات الضرورية لتأكيد الملكية التامة للبحر الأحمر وتبعيته للجمهورية الفرنسية»؛ وفى المادة التالية نطالع: «وسوف يقوم بتحسين حال المصريين بكافة الوسائل التى تحت سلطته» وكانت هذه الإشارة الدقيقة فى نقطة واحدة والعامة فيما يتعلق بالباقى، هى تحديد المهمة السياسية والمدنية التى كان على لجنة العلوم والفنون أن تساهم فيها».

ولا داعى لتوضيح معنى «الوسائل» التى كانت تحت سلطة نابليون من سيوف وبنادق ومدافع.. تلك الوسائل التى قام بواسطتها «بتحسين» حال المصريين بحش رؤوسهم واغتصاب نسائهم وأطفالهم وبقر بطونهم والتنكيل بجثثهم، وحرق قراهم ومحاصيلهم، وسلب ونهب كل ما لديهم.

وأما المقال الثانى والخاص بالسياسة الإسلامية لبونابرت، فنكتفى بنقل أول فقرة والتى يستشهد فيها المؤرخ بنابليون حينما كتب قائلاً: «إن السياسات التى كانت أفضل ما لاحظت من مهارة الشعوب المصرية هى تلك التى اعتبرت أن الدين هو العقبة الأساسية لاستقرار السلطات الفرنسية. فقد كتب فولنيه Volney قائلاً عام ١٧٨٨: لكى تستقر فى مصر لابد لك من شن ثلاثة حروب: الأولى ضد انجلترا،

والثانية ضد الباب العالى والثالثة -وهى أصعبهم جميعًا - ضد المسلمين الذين يكونون غالبية شعب ذلك البلد».

ومنذ اللحظات الأولى من غزوه لأرض مصر بدأ نابليون بالمخادعة والغدر والتحايل.. وينهى فرنسوا شارل-رو مقاله هذا قائلاً:

«فلم يكن إلا لمثل بونابرت أن يعطى منذ أول لحظة أحتكاك بين فرنسا وشمال أفريقيا ومع الإسلام، أكمل النماذج لإدارة محلية وسياسية ودينية جديدة تماما ومدفوعة إجمالاً إلى أقصى حدود تم تحقيقها آنذاك. وعلى أى حال لم يتخطاها أحد. إلا أن الإخضاع والتحالف اللذان كانت تهدف إليهما هذه السياسة المحلية والدينية، كانا هما نفسهما يهدفان إلى إمكانية تحقيق الهدف الاستعمارى الذى كان مسنداً إلى الحملة الفرنسية، فى الظروف الأمنية المطلوبة وكذلك الاستقرار. غير أن تنفيذ نفس هذا المخطط، الذى ساندته على التوالى حيوية بونابرت ونشاطه، لم يمكنه أن يؤثر بدوره على استعدادات الأهالى تجاه السيطرة الفرنسية».

وإذا ما اختصرنا ما تقدم من معطيات بقلم أحد مؤرخى الحملة الفرنسية، واستخلصنا أهم عباراتها لوجدنا أن الحملة الفرنسية على مصر كانت «احتلالاً» و«استعماراً»، وأنها عبارة عن عملية سياسية واقتصادية وعسكرية، بل مشروعًا حقيقيًا لإنشاء مستعمرة، وعمل ثورة حقيقية فى الحياة الاقتصادية لشعوب الغرب وتعويض فرنسا فقدانها المستعمرات الأمريكية، وأن هدف الحملة هو: العمل على جعل مصر تابعة لفرنسا: وأن فوروبيه قد ساهم فى ذلك ففى كتاب **«وصف مصر»** الذى تتغنى به تلك الشرذمة وتتخذه ذريعة للاحتفال، كتب قائلاً فى مقدمته: إنه ساهم فى هذا العمل من نفس منطلق الأهداف الاستعمارية والإحياء الاقتصادى بالاستغلال العقلانى لمواردها. كما يحدد فرنسوا شارل-رو أنه منذ هذه الحملة قد بدأت فكرة استخدام الحرب فى إثراء التراث الفنى والعلمى لفرنسا عن طريق «لجنة العلوم والفنون» التى كانت مهمتها بالتحديد: مساعدة الجيش ووضع العلم فى خدمة الحرب والحكومة، والإسهام فى تنظيم وإدارة البلد الذى تم غزوه، إلى جانب إدخال

فنون أوروبا إلى شعب همجى وبلا تنوير – الأمر الذى يعنى بداية فرض عملية التغريب واقتلاع الجذور والتراث. كما يكشف نفس المؤرخ حقيقة تلك المطبعة المزعومة التى تتغنى بها تلك الشرذمة وأنه قد أتى بها نابليون من الفاتيكان ومن لجنة التنصير وبكل ما تتطلبه من عتاد ومعدات. ذلك لأن الدين الإسلامى هو العقبة الإسلامية لاستقرار السلطات الفرنسية فى مصر! كما كان من ضمن أهداف هذه الحملة المشئومة شق قناة السويس وتأكيد ملكيتها التامة وتبعيتها للجمهورية الفرنسية. وأنكت ما يختتم به ذلك المؤرخ مقالته هو اعتبار المجازر الهمجية التى قام بها نابليون فى مصر وعكا من أكمل النماذج لتحقيق الهدف الاستعمارى المسند إلى الحملة الفرنسية!!

فهل بعد كل هذه الحقائق الشديدة الوضوح والصراحة يحق لأى مخلوق كان وأيا كانت درجة انتمائه للغرب وتواطؤه معه أن يدافع عن الاحتفال بهذا الاستعمار الوقح المتعدد الأوجه؟!...

* * *

الهدف الاستعمارى للحملة الفرنسية على مصر
إعداد ورحيل لجنة العلوم والفنون (١٧٩٨)

مجلة الدراسات النابليونية

المجلد الثانى والعشرون، السنة الثالثة عشرة

يناير - يونيو ١٩٢٤

إن الحملة التى قادها بونابرت على مصر كانت، بالنسبة لهذا البلد، نقطة انطلاق لعصر جديد، وأساسًا لصحوته. ويرجع شرف إطلاق الشرارة الأولى إلى فرنسا. ولقد شهدت السنوات الأربع، التى احتل طوالها الفرنسيون هذا البلد وحكموه، إنجازَ جهودٍ فى المجال السياسى والإدارى والعلمى تستحق كثافتها، ومنهجها ونتائجها أن تحظى بالدارسة بعيداً عن الأحداث العسكرية وأن تسلط عليها الأضواء[١].

* * *

ولقد بدأ الإعداد فوراً للحملة بقيادة بونابرت بنشاط لا يعرف الكلل، وإن ظل المكان الذى ستتجه إليه محاطًا بسرّية مطلقة، إلا أن هذه الإعدادات كانت تؤكد فى نفس الوقت طابعها المرّكب المتعدد الملامح، فهو طابع مدنى وعسكرى وعلمى واستعمارى فى آن واحد.

ولتحقيق البرنامج الاقتصادى الذى ارتجله تاليران فى مذكرته، كانت هناك

---

(١) نزعم دراسة جزء منها على الأقل فى بحث حول «بونابرت وسكان مصر».

حاجة ماسة إلى كفاءات تقنية لم يكن العسكريون بقادرين عليها لانشغالهم بمتطلبات الحملة العسكرية وإلى جانب الموضوعات التى أشار إليها وزير العلاقات الخارجية فى تقرير أضيف إليها هدف أكثر رقياً وغير ذى مطمع.

إن عظمة مصر الماضية وازدهار حضارتها القديمة، والقيمة الفنية والأهمية التاريخية لآثارها التى مازالت تشهد على ذلك، كانت موضوعات تثير خيال بونابرت بشدة إلى جانب كونها موضوعات يألفها. فلم تكن بعيدة عن الانجذاب الذى يشعر به تجاه وادى النيل. وقد كان يرى فيها وسيلة لازدياد مجد الحملة بإضافة اكتشافات مفيدة للفن والعلم إلى جانب الأهمية السياسية للحملة التى سيطرت على فكره وحلم بها وناقشها عند لقائه مع تاليران عند قرب انتهاء الحملة على إيطاليا. فمنذ هذه الحملة على أى حال، بدأت فكرة استخدام الحرب فى اثراء التراث الفنى والعلمى لفرنسا، وإن كان بصورة متواضعة فى البداية، وذلك عن طريق إنشاء «لجنة العلوم والفنون» التى كان مونج عضواً بها. ولقد كانت مهمة مونج فى إيطاليا هى اختيار القطع الفنية التى ستزيّن متاحف فرنسا، وقد سمع آنذاك تلميحاً عن نية بونابرت لتوجيه أسلحته إلى مصر. وقد تلقى منه مهمة جمع المعلومات عن هذا البلد الذى كان ربما قد ساهم فى توجيه أفكار الجنرال إليه. ويمكننا افتراض أن ثقافته قد أكدت فكرة بونابرت من أنه توجد على ضفاف النيل كنوز فنية يتعيّن اكتشافها وهناك أعمال كبرى يتعين تنفيذها. وما أن تم توقيع الصلح فى إيطاليا حتى عاد مونج إلى باريس هو وبرتييه Berthier وقد أسند إليه بونابرت مهمة توصيل اتفاقية كامبو – فورميو إلى الإدارة لاعتمادها. وكان مازال هناك، فى الخامس من ديسمبر عام ١٧٩٧، حينما عاد بطل آركول وريفولى منتصراً إلى منزله بشارع شانترين الذى تغير اسمه تكريماً له إلى شارع النصر. وقد كان هو وبرتوليه Bertholet ولا بلاس Laplace ولا جرانج Lagrange من العلماء الذين أحاط بهم الجنرال نفسه ليتحدث فى الرياضيات والفيزياء والكيمياء. وبعد ذلك بقليل، تم تعيين بونابرت فى أكاديمية العلوم، فى المقعد الذى خلا بنفى كارنو Carnot. وقد اغتبط بهذا التكريم حتى أنه

ذهب لحضور الجلسة مرتدياً بدلة الأكاديمية التى صممها له الفنان دافيد David. وبعد قليل بدأ يوقع قراراته وقد ألحق باسمه لقب عضو المجمع الوطنى قبل لقبه العسكرى. وذلك يدل على مدى الأهمية التى كان يضفيها على وجوده برفقة رجال العلم.

وهكذا توصل، عند ميله إلى شن حملة على مصر وفور أن تقرر ذلك بالفعل، إلى إضفاء الهدف العلمى والفنى عليها، وأن يزود الجيش بلجنة العلوم والفنون حيث كانت كافة التخصصات ممثلة بها. ترى ما كانت مهمة هذه اللجنة؟ أولاً وقبل أى شىء مساعدة الجيش ووضع العلم فى خدمة الحرب والحكومة، والإسهام فى تنظيم وإدارة البلد الذى تم غزوه، وإلى جانب ذلك، على حد قول أحد الذين ساهموا فيها[1]: «إدخال فنون أوروبا إلى شعب نصف همجى ونصف متحضر، بلا صناعة وبلا تنوير علمى»: «وأخيراً الكشف لأوربا عن مصر القديمة، ومصر آنذاك، مصر الفراعنة واليونان والرومان ومصر المماليك».

* * *

وابتداء من ٢٦ فنتوز العام السادس (١٦ مارس ١٧٩٨) صدر مرسومًا من الإدارة إلى وزير الداخلية «ليضع تحت تصرف الجنرال بونابرت المهندسين والفنانين والمرءوسين الآخرين بوزارته وكذلك المعدات المختلفة» التى قد يطلبها الجنرال لخدمة الحملة المسئول عنها[2]. وبونابرت، الذى صدر من أجله هذا المرسوم، لم يكن قد انتظر إتمام هذا الإجراء ليختار بنفسه ويعيّن قادة أعضاء مجلس القيادة العلمى، إذ أنه كان قد اختار وعيّن مونج وأرسله إلى الفاتيكان، قبل ذلك بقليل، ليأخذ من هناك، من لجنة التنصير مطابع اللغات اليونانية والعربية والسريانية بكامل هيئتها من معدات وأحرف وأعمال، إضافة إلى الخرائط والكتب والوثائق المتعلقة بمصر إن وُجدت. وفى

(١) جومار: «**ملاحظات حول كونتيه**» باريس، ١٨٤٩.

(٢) يوجد نص هذا المرسوم فى «**يوميات وذكريات حول الحملة على مصر**» بقلم أ. فيلييه دى تراج، باريس، دار نشر بلون، ١٨٩٩.

تلك الفترة ذكره صديقه المتسلط برغبته التى كان قد أعرب له عنها فيما مضى. ففى ٢٥ فنتوز (١٥ مارس) وقبل أن توقع الإدارة على وثيقة مولد لجنة العلوم والفنون بعدة أيام، كان مونج يكتب من روما إلى بونابرت ليثنيه عن اصطحابه معه إلى مصر:

«إنك تريد بصورة مطلقة، يا عزيزى الجنرال، أن أقوم بالمغامرة فى مثل سنى. فإن كنت أكثر شبابًا لما وجدت عرضًا أفضل من أن أقوم بالخدمة تحت أوامرك وأن أساهم بإمكانياتى المتواضعة فى الخير الذى تتطلع إلى عمله لوطننا وللعالم أجمع، إلا أننى مطلوب فى باريس لمهمة يمكننى القيام بها ولا يستطيع غيرى إنجازها، كما أننى سأترك فى باريس سيدة لم تعد شابة وستكون بمفردها ولا يحق لى أن أتعسها والتى لم يعد الأمل، الذى يجعلها تتحمل العديد من الآلام، بذى معنى رجاء تركى مع الباقين أعجب بملكاتك وأُقَدِّر خدماتك وأتغنى بمجدك»[١].

إلا أن مقاومة بونابرت لم تكن بالأمر الهيّن، وكان من المحال بالنسبة لمونج، وهو أول من عرف بمشاريعه المتعلقة بمصر، أن يرفض الذهاب معه! وبعد شىء من التردد اضطر مونج إلى أن يعد الجنرال بأنه سيرحل معه – وكان ذلك بعد تهديد بونابرت له بأنه سيعود من إيطاليا لكى يصطحبه[٢]!

أما برتوليه، وكان لا ينفصل عن مونج، وهو أيضًا من رواد شارع شانترين، فكان اختيار بونابرت قد وقع عليه منذ البداية إذ أنه تعرف إليه وقَدَّر شأنه عندما كان فى إيطاليا وكان قد طلب منه دروسًا فى الكيمياء، وكان برتوليه قد اشتهر بأعماله القيمة حول الكلور، والنشادر، والصبغات، إضافة إلى كونه عضواً بأكاديمية العلوم وهو فى الثالثة والثلاثين وكان مثل صديقه مونج قد وضع علمه فى خدمة الدفاع الوطنى أيام حرب الثورة. وبينما كان مونج يقوم بإنشاء مسابك المدافع ويكتب بحثًا عن فن تصنيع هذه الآلات كان برتوليه قد بحث واستطاع أن يتوصل إلى أنواع

---

(١) وارد فى لاجونكيير، المرجع السابق الذكر، المجلد الأول، صفحة ٣٢٢.

(٢) خطاب من بونابرت إلى مونج، ١٣ جرمنيال، ٢ إبريل. راجع لاجونكيير المرجع السابق الذكر، المجلد الأول ص ٣٢٥.

جديدة من المتفجرات وأشرف على تصنيع البارود، فكانت خدماته وإمكانياته تؤهله ليشارك فى الحملة التى يتم الإعداد لها.

أى أن برتوليه ومونج كانا أول نواة للجنة المقبلة. وسرعان ما التف حولهما كوكبة لا مثيل لها من المهندسين المدنيين والمعماريين والميكانيكية والعلماء فى مختلف المجالات، والفنانين والأدباء وعمال الطباعة. وبدأت عملية الاختيار فور موافقة الإدارة على مبادرة بونابرت، وتمت تحت إشراف القائد العام سواء بمعرفته شخصيًا أو بواسطة أوائل من كان قد اختارهم. فتولى برتوليه مهمة تعيين جزء من العلماء، أما الجنرال كفارللى دوفالجا Caffarelli-Dufalga وكان تابعًا لجيش العبقرى الذى عينه لتولى إدارة اللجنة العلمية الفنية، فقد وقعت عليه مهمة ترشيح وبحث واختيار طلبات الالتحاق[١].

وكان فورييه من أوائل من وقع عليهم الاختيار، فهو مهندس مساحة ذائع الصيت، وأستاذ فى كلية الهندسة. وقد اهتم بتجنيد العديد من زملائه وتلاميذه القدامى وتلاميذه الحاليين ليكوّن جبهة من المهندسين المدنيين. وسرعان ما انتشر خبر أن الحكومة تبحث عن تقنيين للاشتراك فى حملة بعيدة ظل مكانها سرًا غامضًا وانهالت الطلبات تلقائيًا، وهكذا تقدم تطوعًا ڤيلييه دى تراج Villiers du Terrage وصديقه دى بوا إيميه Du Bois Aimé، وكلاهما من كلية الهندسة[٢]. كما ساهمت مختلف مؤسسات الدولة من مراكز ومدارس عليا، ووزارات المناجم، والطرق والكبارى، وكونسير فاتوار الفنون والحرف، والغازات، ومتحف العلوم الطبيعية، والمرصد، ساهمت كلها بما لديها من فنيين. ولعل ترشيح الجيولوجى الشهير دولوميو Dolomieu قد تم بواسطة بونابرت شخصيًا إذا أنه كان قد تعب من

---

(١) فيما يتعلق بكل ما يخص تكوين وأعمال لجنة العلوم والفنون راجع الفصول الشديدة الأهمية التى خصصها ك. چورچ لجران فى بحثه المعنون: «**فى بلدان نابليون: مصر**» طبع فى جرونوبل، دار نشر شارل روا ١٩١٣.

(٢) راجع فيلييه دى تراج. المرجع السابق الذكر.

مغامرات حياته، ولم يقبل السفر إلا بعد أن استشف سر الحملة، ووجدها فرصة طيبة لكى يتحقق بنفسه حول النتائج التى توصل إليها فى بحث كان قد نشره عام ١٧٩٣ حول تكوين دلتا النيل[١]. أما برتوليه، فكان قد ذهب إلى حديقة النباتات للبحث عن علماء طبيعة فتحدث إلى اثنين من أصغر الأساتذة سنا هما كوفييه Cuvier وچوفروا سانت هيلير Geoffroy Saint-Hillaire قائلاً: «تعاليا معنا، مونج وأنا سنكون رفاقكما وبونابرت سيكون قائدنا»[٢]. ولم يتمكن كوفييه من اللحاق بهم معتذراً بينما وافق جوفروا سانت هيلير.

ومنذ السادس من جرمينال (٢٦ مارس)، كان بونابرت يتولى كافة المهام العسكرية والمدنية فى آن واحد فطلب من وزير الداخلية أن يعد له عدداً من الأخصائيين، الذين كان يعلم موافقتهم أو يفترضها، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد للسفر لاتجاهات عابرة مختلفة، بعضهم إلى مدينة بوردو، والبعض الآخر إلى فلمينج وكانوا كالآتى: المواطنان دانجوس Dangos ولاشابيل Lachapelle فلكيان، كوستاز Costaz، فورييه، مونج ومولار Mollare مهندسو مساحة، كونتيه Conte رئيس لواء مراقبى المناطيد، ثوان Thouin، جوفروا سانت هيلير، دليل، علماء طبيعة، دولوميو، عالم مناجم، برتوليه، كيمائى، دوبوى Dupuis، خبير آثار، إسنار Isnard لوبير Lepère، جراتييان Gratien لوبير، لانكريه، لوففر مهندسو طرق وكبارى، والمستشرق شيزى Chezy والمترجم بانهوزين Panhuzen[٣].

وهذه القائمة المبدئية قد خضعت إلى بعض التعديلات والإضافات من قبل وزير الداخلية بالتنسيق بلا شك مع بونابرت، وفى ١٣ جرمينال (٢ أبريل) قام هذا الوزير، السيد ليتورنير Letourneur، بتقديم أسماء العلماء الذين وقع عليهم الاختيار من

---

(١) راجع «ذكريات دى ديجينيت».

(٢) راجع ايتيين جوفروا سانت هيلير، (**خطابات مكتوبة من مصر**)، ناشرها م. هامى، هاشيت باريس ١٩٠١.

(٣) راجع لاجونكيير، المرجع السابق الذكر، المجلد الأول، صفحة ٢٤٥.

بونابرت إلى الإدارة، لكى « يتم تعيينهم فى مهمة خاصة » وقائمة بأسماء مهندسى وطلبة الطرق والكبارى « للتوجه إلى فلسينج ». وإلى هذه القائمة الجديدة تمت إضافة أسماء كل من نوية Nouet ، عالم فلك، كلويه Clouet وريشيه Richet، ميكانيكيين، ميلبير Milbert عالم مناجم، ديكوتيل Descotils، ساموبل برنار Samuel Bernard، رينيو Regnault، كيمائيين، بودار Bodard، مهندساً، وفيفر Fever الطالب بالطرق والكبارى. وقد اختفت من القائمة أسماء كل من ليفيفر ودى شيزى[١].

وقبل الرحيل، وقعت عدة تخلفات فى صفوف هذه المجموعات الأولى من التجنيد للجنة[٢]. وعلى العكس من ذلك، فقد ازدادت القائمة بعدد ضخم من المرشحين الجدد. فقد اجتذبت الأسماء المسجلة فى البداية العديد غيرها، إذ أن الدعاية التى قاموا بها حددت مصير الكثيرين، إذ أصبح كل مرشح يقوم بمهمة تجنيد الآخرين، وقام القادة باختيار أتباعهم. وهكذا أصبح لواء المهندسين الذى كونه فورييه يضم ٤٥ عضواً سواء كان تلميذاً أم خريجاً أم معلماً أم أستاذاً. أما جوفروا سانت هيلير فقد شجع سافينيى Savigny، الذى كان عائدا من الصين، ونكتو Nectoux العائد من سان دومنج، ومصور الزهور ردوتيه Redouté ، للانضمام إلى جماعة علماء الطبيعة. وقام المرصد بترشيح الفلكى كينو Quesnot والطالب ميشان Méchain . أما كافة مهندسى المساحة ومهندسى الطرق والكبارى الذين كانوا فى الخدمة العسكرية فى الجيش الفرنسى بإيطاليا فقد تلقوا الأوامر بالتوجه إلى جنوا[٣] للإبحار مع فرق الجنرال بارجى ديليه Baraguey-d'Hilliers . وكان على قائمة المجموعة الأولى جاكوتان Jacotin رئيساً للمهندسين. أما المطبعة القومية التى طلب بونابرت من ليتورنير أن يوبخ مديرها المتهم بسوء النية، فقد قام بتزويد المطبعتين بكافة المعدات اللازمة لها، وكانت إحداهما يونانية والثانية عربية. وذلك إضافة إلى

---

(١) لاجونكيير، المرجع السالف الذكر، المجلد الأول صفحة ٢٤٦ .

(٢) لم يسافر كل من كلويه، ريشيه، دانموس، دوك لا شاربيل، مولار، إيسنار وثوان .

(٣) لاجونكيير، المرجع السابق الذكر، المجلد الأول صفحة ٣١٠ .

مجموعة من العاملين مكونة من مساعد طباع، وثلاثة من المصححين، وثمانية عشر من عمال الطباعة التيبوغرافيين ويقودهم المستشرق مارسيل Marcel، خلفًا للانجليس Langlès الذى رفض السفر. ويقول الأمر الموجه إلى الوزير المختص: إن هذا العتاد وهؤلاء الأشخاص كانوا سيتوجهون إلى الجزر الإيطالية(١). كما تم التوجه إلى مدرسة اللغات الشرقية وفريق المترجمين للحصول على مستشرقين ومتحدثين بالعربية، وكان أحدهم واحداً من أهم المخبرين بوزارة العلاقات الخارجية وهو فنتور دى بارادى Venture de Paradis. أما الفنانون من قبيل فيفان دينون Vivant-Denon، الذين لم يكن ولعهم بالفن قد اطفأ لديهم روح المغامرة، فقد طلبوا الالتحاق بالحملة.

وكان بونابرت يود فعلاً أن تضم اللجنة كافة التخصصات التى يمكنها أن تفيد فى الأعمال العلمية والفنية والأدبية. بل لقد تمادى فى طموحاته بأنه كان يريد من هذه اللجنة أن تقدم للجيش وللمستعمرة التى كان يزمع إنشاءها كافة الموارد التى تلطف وتجمل الحياة. وكم تمنى أن يصطحب الشاعر ديليل، والموسيقى ميهول والمغنى لوا. وبدلاً من ديليل المتقدم فى السن، وميهول المحب للبقاء فى المنزل، ولوا الذى خشى أن يصاب بالرشح، فقد اصطحب بونابرت كلاً من بارسيفال جرانميزون، ريجيل وفيللوتو الذى كان البديل الاحتياطى للوا فى الأوبرا. أما الأكاديمى أرنو الذى اضطر إلى التوقف فى مالطة فقد كان يعوض ما ينقص بارسنال ليمثل مجال الآداب.

وعند اقتراب موعد الرحيل وامتلاء قوائم التجنيد اضطرت الحكومة إلى غلق القوائم، وكانت لجنة العلوم والفنون تضم أكثر من ١٨٧ عضواً من المدنيين والعسكريين(٢). إلا أن عشرين منهم لم يرحلوا، فإذا ما طرحناهم من المجموع لحصلنا

(١) راجع لاجونكيير المرجع السالف الذكر المجلد الأول، صفحة ٢٢٩.

(٢) إن الأرقام التى نوردها تختلف عن تلك الناجمة عن القائمة المنشورة تبعًا لذكريات دى فيلبيه دى تبراج المذكور سلفًا. وهذه القائمة تتضمن بالفعل أسماء أعضاء المجمع المصرى الذى هو المؤسسة اللاحقة والتى اجتمع فيها بعض الجنرالات وكبار الموظفين التابعين للجيش. ولقد اعتمدنا فى تقديراتنا على الجدول الذى أعده استيف والوارد فى الهامش التالى.

على رقم ١٦٧، الذى يشير إليه استيف Estève الجنرال الصراف بالجيش، فى بيان حالة أعده فى الطريق من طولون إلى مالطة[١].

أى أن اللجنة فى الوضع الذى عملت به فى مصر تضمنت ١٦٥ عضواً.

وبمجرد تجنيدهم، كان يتم توزيع أعضاء اللجنة إلى مجموعات تتفق وتخصصاتهم ومع الخدمات التى كان الجنرال يتوقعها منهم: علماء فلك، مهندسو مساحة، كيميائيون وفزيائيون، مهندسون - ميكانيكيون، ومعماريون، مهندسو طرق وكبارى، مهندسو جغرافية، مهندسون، علماء حيوان، علماء نبات، علماء مناجم، فنانون وموسيقيون، آدباء، اقتصاديون وأخصائيو آثار، مستشرقون، قائمون على المطبعة، وأخيراً جراحون، أطباء وصيادلة.

ولم يحدث أبداً أن قام جيش لغزو بلد واصطحب معه مثل هذه الانسيكلوبيديا الحية، إن مجمل كوادر اللجنة كان يمثل موجز ما يمكن لحضارة متقدمة أن تنتجه من مفيد أو مثمر. لقد كانوا يمثلون جنيناً، ليس لمجرد إدارة ما وإنما لمدرسة حقيقية من التقدم المادى والمعنوى، إن الأسماء التى كانت تضمها هذه الكوادر والتى ذكرنا بعضاً منها هى أسماء لأساتذة مشاهير قد تم اقتلاعهم، لمصاحبة بونابرت فى مصر، من كل من أكاديمية العلوم، وأقسام كبرى الكليات المتخصصة، ومن إدارة مؤسسات الدولة.

وإلى جانبهم كان هناك العديد من الذين يخطون خطواتهم الأولى فى حياتهم العلمية أو حتى يستعدون لها، وإذا ما تشكك البعض فى أمر اختيارهم، فسرعان ما يقتنع بهذا الاختيار عند ملاحظة أن أكثرهم قد اشتهر وأن معظمهم قد وصل إلى أعلى المناصب. فمن بينهم، كم من مهندسين ارتقوا إلى القمة أو مفتشين عموميين، وأساتذة، وأعضاء مقبولين فى المعهد الفرنسى أو فى أكاديمية العلوم أو أكاديمية

---

(١) فيما يلى بيان الحال هذا وقد نشره لاجونكيير فى المرجع السالف الذكر المجلد الأول صفحة ٥١٠: «علماء وفنانون إلخ ١٦٧، ٢١ رياضيات، ٣ فلك، ١٥ علماء طبيعة ومهندسو ألغام، ١٧ مهندساً مدنياً، ١٥ جغرافياً، ٤ مهندسين مدنيين، و٣طلاب مهندسين بناء، ٨ رسامين، ١ نحات، ١٠ فنانين ميكانيكيين، ٣ بارود وملح بارود، ١٠ آداب وسكرتارية، ١٥ قنصلاً ومترجماً فورياً، ٩ مفتشى صحة، ٩ محجر صحى، ٢٢ طباعاً، فنانين موسيقيين».

الآداب بل والأكاديمية الفرنسية! وقد كتب بونابرت[١] إلى مونج قائلا: «سنصطحب معنا ثلث المعهد العلمي. وإذا ما اقتصرنا على الحاضر فإن العبارة مبالغ فيها بعض الشيء، لكن إذا ما نظرنا إلى المستقبل فكان يحق لبونابرت أن يقول أنه كان سيرحل مصطحبًا معه ثلث المعهد في نبتته الأولى.

وفي هذه المرحلة كان هؤلاء العلماء في أغلبيتهم من الشباب. وبرحيلهم تحت قيادة جنرال في التاسعة والعشرين من عمره، فقد كان كثير منهم أصغر منه سنًا. فيلييه دي تيراج ودوشانوا كانا في السابعة والعشرين، دي بوا إيميه في التاسعة عشرة، جومار في الحادية والعشرين جوللوا ولانكريه في الثانية والعشرين، مالوس وريبو في الثالثة والعشرين، ديكوتيل في الخامسة والعشرين، سانت جني في السادسة والعشرين. أما أكبرهم سنًا، نويه، فكان الوحيد الذي يقترب من الستينيات، بينما برتوليه ومونج كانا على التوالي في الخمسين والثانية والخمسين. وكانوا جميعًا سواء شبانًا أو مسنين يجمعهم نفس الإخلاص للوطن والعلم، وما يجب علينا أن نشير إليه بعد ألقابهم هو روحهم المعنوية. فعلى الرغم من أن معظمهم كان يجهل أين يصطحبونه، إلا أنهم جميعًا كانوا يرحلون في غاية الحماس والاطمئنان. وقد كتب دوبوا إيميه فيما بعد قائلاً: «كنا نجهل أين كان بونابرت سيقود خطانا. لكن لم يكن يعنينا. إذ أن هذا المحارب المجيد كان يوحي بحماس نبيل وبثقة عمياء. إن مونج وبرتوليه وكافارللي ودولوميو كانوا يرافقونه ويقبلون أن نشترك معهم في أعمالهم. فهل كان بوسعنا أن نتردد لحظة»[٢] وعلى الرغم من انعزاله في إيطاليا، والأدهى من ذلك أن زوجته كانت شديدة التأنيب له وتتهمه بالجنون، فإن مونج كان قد انتهى به الأمر هو أيضًا بالخضوع لفخر المساهمة في عملية راح يصف هدفها بهذه الروعة إلى بونابرت[٣]:

---

(١) في ١٦ جرمينال، ٥ أبريل. وارد في لاجونكيير المرجع السابق الذكر المجلد الأول صفحة ٣٣٠.

(٢) أورده جورج لجران في المرجع السالف الذكر صفحة ٨١.

(٣) من بلدة تشيفيتا فيكيا، في ٦ بريرال العام السادس، ٢٥ مايو ١٧٩٨. أورده لاجونكيير في المجلد الأول صفحة ٥٠٣.

«هأنذا قد تحولت إلى مغامر. إنها لمعجزة جديدة لبطلنا الأسطورى الجديد، جازون Jason، الذى لن يخوض البحار من أجل الحصول على جزّة لن تضيف مادتها الكثير إلى الثمن، لكنه ذاهب لينقل مشعل العقل فى بلد قد انطفأ نوره من زمان ولم يعد يشع، وليمد وليوسع مجال الفلسفة وأن ينقل المجد الوطنى إلى بعيد».

وبينما ظل مونج فى روما، التى لم يغادرها إلا ليبحر إلى تشيفيتا فيكيا مع جزء من فرق الحملة، فقد كان يجاهد قدر طاعته لإرضاء الطلبات المتكررة لبونابرت فى العتاد والعاملين بالطباعة، والكتب والخرائط والمترجمين الفوريين. ومنذ ٢٥ فانتوز (١٥ مارس)[١] أعلن أنه سيحصل على ثلاث مطابع من لجنة التنصير بكافة المعدات والمواد اللازمة لتشغيلها، وقد أضاف إليها الأحرف اللاتينية والعربية والسريانية. كان يزمع الحصول على عدد من الطباعين المساعدين لكنه لم يجد القدر الذى كان يتمناه بونابرت. كما كان يبحث عن المترجمين الفوريين. إلا أنه لم يستطع الحصول على أية خرائط أو أية معلومات من أى نوع كان. فقد جاهد عبثًا ليجد بعضًا منها فى مكتبة التنصير أو مبنى نقش المعادن. ففى إحداهما لم يجد سوى بعض الكتب القديمة التى لا تتفق والوضع الراهن للأمور، وفى الأخرى لم يجد سوى أطلس بسيط حيث كانت خريطة أفريقيا ناقصة ويجب استكمالها[٢] لذلك اقترح مونج عدم الاعتماد إلا على وثائق باريس فيما يتعلق بالكتب والوثائق، وأن يأخذوا من هناك عدة نسخ من كل الكتب التى كان هو وبونابرت يمتلكانها فى باسريانو وكانت القائمة لدى مساعد الجبهة سولكوفسكى Sulkowski. أما فيما يتعلق بالمترجمين الفوريين فلم يتمكن من تجنيد العديد منهم ولا حتى من المشاهير فقليل منهم كان يجيد القراءة والكتابة. وقد اقترحوا عليه أحد الرهبان الشديد الثقافة لكنه لم يتمكن من الاتصال به حتى ذلك الوقت، إذ كتب قائلاً: «إننى مضطر إلى مراقبته ومحاصرته فى كل مكان وأرجو أن أوفق». وأخيرًا فى ١٥ جرمينال (٤ أبريل)[٣] كانت المطبعة مغلفة بكاملها وأربعة

---

(١) راجع لاجونكبير المرجع السابق الذكر المجلد الأول صفحة ٣٢٢.

(٢) راجع لاجونكبير المرجع السابق الذكر المجلد الأول صفحة ٣٢٤.

(٣) راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الأول صفحة ٣٣٠.

مترجمين فوريين مستعدين للسفر. وفى الثامن والعشرين من الشهر (الموافق ١٧ أبريل) كان مفوضو الإدارة وكل من مونج، وفيبو، ودانو، وفلوران يحصلون على قرار ينص على تكوين وأجور أعضاء المطبعة الشرقية التى كانت تضم مترجمًا فوريًا، ومساعدين للطباعة، وثلاثة محررين وثلاثة طباعين. وكان المترجم الفورى هو دياربكير أحد الطباعين المساعدين من دمشق[١].

واضطر بونابرت أن يعوض بوسائله الخاصة نقص الكتب والخرائط الذى لاحظه مونج فى الفاتيكان. وقام شخصيًا بتكليف سكرتيره الخاص بوريين Bourrienne ليكون له مكتبة معسكر صغيرة من القطع المتوسط وقد كتب له القائمة، وكانت تتضمن ستين كتابًا. ولعل هذه القائمة كانت النواة لمكتبة أضخم من ذلك بكثير والتى تلقى الجنرال كافارللى أمر تكوينها. واستعان كافارللى فى هذه المهمة بالاقتصادى جان باتست سيه Jean-Baptiste Say الذى أرشده فى الاختيار وعاونه على شراء الكتب وكان عددها حوالى خمسمائة وخمسين كتابًا. وكانت الانسيكلوبديا ومجموعة أبحاث أكاديمية العلوم، وأعمال فولتير، ودراسات فنية وتاريخ عسكرى، وكتب تاريخ وجغرافيا، وكتب رحالة، خاصة أعمال سافارى وفولنيه ، وأهم الأعمال الأدبية، والعديد من الكتب التقنية فى الطب والجراحة والهندسة والتخطيط المدنى، بمثابة العتاد الثقافى للحملة. وهنا لابد من إضافة مجموعة مكونة من سبع نسخ من الخرائط للجغرافى دانفيل، ولم تكن متعلقة بمصر وحدها وإنما خاصة بالمناطق التى كان يمكن أن تمتد إليها الأعمال الحربية للجيش: أوربا الوسطى، شطآن اليونان وجزرها، آسيا، فلسطين، الهند، الخليج العربى، فينقيا، بحر قزوين وأفريقيا. وقد تم تخصيص مبلغ ٢٥٣٢٩ جنيهًا لتكوين هذه المكتبة.

ولم تكن هذه إلا جزءًا من المهمة الملقاة على عاتق الجنرال كافارللى. وفى أحد خطاباته لبونابرت اقترح عليه مونج شراء مقياسين أو ثلاثة وأن يستعين ببرونى Prony

---

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الأول الصفحة ٤٤٠ .

من أجل ذلك[١]. وهذه النصيحة كان القائد العام قد تنبه لها وقام بتنفيذها قبل أن يصله هذا الخطاب، إذ كان قد أوصى كافارللى[٢] بشراء كافة المعدات التى قد تحتاج إليها اللجنة وهو يقوم بشراء الكتب، ومنها معدات الفلك، والفيزياء والكيمياء، والمسح الأرضى، ومعدات ومواد لمحطة المناطيد، وعلم الأحياء، والجراحة، والصيدلة، والطباعة والعديد من الآلات والمعدات المختلفة. وقد ارتفعت قيمة مشتريات كافارللى بما فيها المكتبة ومصاريف النقل والتغليف وأتعاب الموظفين إلى مبلغ ٢١٥٥٠٩ جنيهًا. وقد زود كل فريق من اللجنة بطاقم كامل من المعدات والأدوات: ساعة ونظارة فلكية للفلكيين، بوصلة، مقاييس الانحراف، مقاييس استواء للمساحين، آلات غاز، كهرباء، بارومترات، ترمومترات ومقاييس رطوبة للفزيائيين إلخ إلخ.. كما حصل الجراحون على كل ما يلزمهم لعمليات البتر ولعمليات ثقب العظام، والقرنية، والقطع والحز إلخ... كما تم فك وتغليف مرصد ومعمل فيزياء، ومعمل كيمياء، ومعدات مساحة ومكتب للعلوم الطبيعية، ومنشأة مناطيد، وصيدلية، ومستشفى، ومطبعة، وذلك ليتم شحنها مع الجيش[٣].

وفى آواخر جرمينال (منتصف أبريل) كان قد تم تكوين اللجنة على الورق وتم تزويدها بترسانتها العلمية، فأعطى بونابرت أمر التجمع. وكان كل العلماء والفنانين والعمال والضباط ومعظمهم من باريس وبعضهم من الأقاليم، على أهبة الاستعداد للرحيل إلى فلسينج أو بوردو إلا أن كافارللى قد أعطاهم أمر التجمع فى ليون حيث وصلوا إليها فى ٤ فلوريال (٢٣ أبريل). وأعلن لهم فى أمر الرحيل أن هدف السفر متجهًا إلى روما. وكان على برتييه رئيس الأركان أن يزودهم بالجوازات بينما سبقهم كافارللى إلى مدينة ليون. وكان على أحد الضباط المهندسين أن يستأجر عربة جياد

---

(١) ٢٧ مارس. راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الأول صفحة ٣٢٧.

(٢) منذ الثانى من جرمينال (٢٢ مارس) اهتم بونابرت بمعرفة إذا ما كانت النقود اللازمة قد وضعت تحت تصرف كافارللى. راجع لاجونكيير المجلد الأول صفحة ٢٤٣.

(٣) راجع فيما يتعلق بمشتريات المكتبة والمعدات الخاصة بلجنة العلوم والفنون، المرجع الوارد ذكره فى لاجونكيير، المجلد الأول، ملحق ٣ صفحة ٦٦٣.

للمسافرين أو قارب لنقلهم إلى المدينة آفينيون. وقد وصلوا مساء ٨ فلوريال إلى طولون حيث كان كافارللى قد أعد لهم أماكن المبيت.

ولقد تمت الرحلة وفقًا لهذا البرنامج الذى كان بونابرت قد أعده. فبدأت الرحلة على طرق فرنسا وعلى مياه نهر الرون، فى عربات متواضعة وعلى قوارب تجرها الجياد. إن ملحمة هذا الجيش الكبير العلمى قد بدأت وكأنها رحلة للاستمتاع. وسعد الشباب بضحكاتهم وحيويتهم وبفرحة الحياة وعدم الاهتمام بالغد. وكان الخريجون الجدد يهللون باكتشافاتهم وهم يكتشفون فرنسا، فقد كانوا يسخرون وهم جادون، وتلهيهم مناظر الطريق والشوارع وهيئاتها، أو عادات وتخلف الأقاليم، وكانوا يهتمون بالأبنية والآثار الرومانية وجمال الطبيعة، بل وكان بعضهم مثل جوفروا سانت هيلير يعجب بالمدارس والمجموعات والصناعات. وكانت الوجبات غير المتوقعة والمرتجلة ووسيلة البيات كافية بالكاد لتضفى على هذه الرحلة روح الفريق الذى هو سحر السياحة.

ولم يكن هدف الحملة ليفزع أحداً، فبينما مازال الشك يحوم حول غايتها لم يكن أى شخص يهتم بذلك إذ اطمئنوا للهدوء الواضح على قادة اللجنة وتماسكهم. وعند وصولهم إلى طولون علم جرفوا سنت هيلير من كليبر أنهم «ذاهبون إلى الهند» ولا يبدو أن هذا الاحتمال أو فكرة «الرمال الحارقة فى مصر» قد أثارت قلقه[١].

وكتب بونابرت إلى مونج فى ٢١ فلوريال (١٠ مايو)[٢] قائلاً: «لقد وصلنا جميعًا هنا[٣] ومخيم علمائنا فى حالة معنوية عالية». وسرعان ما بدأ الإبحار. وتم تقسيم أعضاء اللجنة على مختلف بواخر الأسطول، وكان أكثرهم مكانة من قبيل برتوليه وآرنو، على متن البارجة الرئيسية «أوريان» بينما تم توزيع الآخرين على بوارج أكثر تواضعا[٤]. وعندئذ بدأ الاحتكاك بين المدنيين، الذين كانوا حتى تلك اللحظة

---

(١) راجع الخطابات المكتوبة من مصر إلى كوفييه، ٢٤ فلوريال، ١٣ مايو.

(٢) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الأول.

(٣) فى طولون.

(٤) جوفروا سانت هيلير على متن «الألسست» وفيلييه دى تراج على متن «فرانكلين» وسافينى ورافنو ديليل على متن «دبوا» إلخ.

يكونون جماعة متجانسة بينهم، وبين العسكريين الذين كان عليهم أن يتعايشوا معهم. وكان الاحتكاك فظًا قد عانى المدنيون كثيراً. وقام كافارللى، بناء على أوامر بونابرت، بتقسيم أعضاء اللجنة وفقًا لمكانتهم فى فرنسا، إلى خمس طبقات[1]، تحصل كل منها على معاملة مختلفة واندماجًا محدداً وفقًا لتدريج الرتب العسكرية، فالذين أدرجت أسماؤهم فى الدرجة الأولى تساووا بدرجة الضباط العليا وهكذا. وقد حاول القائد الأعلى بهذا التصرف أن يحد من أى تفرقة بين المدنيين والعسكريين فيما يتعلق بترتيبات الإقامة على الباخرة. ولقد تصرف بدون عجرفة ضباطه وبدون تحيزاتهم وارتيابهم من أولئك الدخلاء ذوى السترات المدنية والبرانيط العالية، أى اختصاراً ضد كل أولئك «المدنيين» وباستثناءات قليلة، فقد أسيء استقبال العلماء على السفن، فواحد من أشهرهم اضطر للتشاجر طويلاً ليحصل على كبينة وعلى مرقد. وعادة كان ينظر إليهم بعين ضارية من قبل ضباط الجيش، بل حتى من قبل بعض كبار الجنرالات فى المحيط المباشر لبونابرت، إذ كانوا لا يتحرجون ألبته من التعبير عن عدائهم. وقد امتد هذا الوضع طوال مدة الإبحار. كما أن قائد اللجنة نفسه، كافارللى – دوفالجا، لم يتورع عن الإعراب عن تفضيله المهندسين العسكريين على المهندسين المدنيين. فالاهتمام والرعاية التى كان يغدقها بونابرت على العلماء الذين معه على متن «الأوريان» قد زادت من غيرة واحتقار غالبية رجال السيف للمطخى الورق. فلقد كان جونو يتثاءب فى الجلسات التى كان يجمع فيها القائد الأعلى كل من برتوليه، فنتور، آرنو، ديجينيت، لارى، ويقول «لان» قد تم قبوله فى اللجنة من أجل أسمه[2]. وكان «لان» يعتقد أنه فى مأمن من هذه الإهانة، وكم ندم على أنه لم يتمكن من إلقاء آرنو فى البحر بواسطة خمسين جنديًا! وبالطبع لم يسقط كل الضباط إلى هذا المستوى وأكثر من واحد قد تمسك بالإفصاح عن تقديره لجيرانه المدنيين، من قبيل الجنرال رينيه الذى أحاط جوفروا سانت هيلير بكل العناية واستطاع

---

(١) راجع خطابات جوفروا سانت هيلير.

(٢) نطق هذا الأسم يطابق صوتا اسم «الحمار» بالفرنسية (المترجمة).

أن يجعل مرؤسيه يتبنون نفس الترحيب بالعالم الشاب. إلا أنه إجمالاً يمكن القول بأن اللقاء الأول بين العناصر المدنية والعناصر العسكرية كان خاليًا من أى ترحاب. ولم يتخل العسكريون عن عدائهم إلا فيما بعد بكثير.

لنترك الآن العلماء والجنود يبحرون إلى مالطة، ثم إلى الإسكندرية، ولنتوقف لحظة أمام الاستعدادات العلمية التى أشرنا إليها. إنها لا شك قليلة نسبيًا إذا ما قارناها بالاستعدادات العسكرية الضخمة التى تمت فى نفس الوقت على التوالى، إلا أنها مع ذلك تمثل جهداً ضخماً وأدت إلى نتيجة فريدة فى التاريخ فى تكوين جهاز عسكرى بصورة لم تتح لمثله أبداً. وإذا ما كان يقال حقًا إن الوظيفة تخلق العضو، فإنه يمكننا قياس أهمية المهمة التى من أجلها تم خلق هذا الجهاز.

وبينما كانت الحملة فى حيز التنظيم، وبعد أكثر من شهر من بداية الاعدادات العلمية والعسكرية، قررت الإدارة أن تعلن فى قرار[1]، ظل سريًا لفترة، الهدف والغرض من المهمة المسندة إلى بونابرت.

إن القائد الأعلى لجيش الشرق، كما يوضح القرار فى المادة ٣: «سوف يشق قناة السويس ويتخذ الإجراءات الضرورية لتاكيد الملكية التامة للبحر الاحمر وتبعيته للجمهورية الفرنسية»، «وفى المادة التالية نطالع: «وسوف يقوم بتحسين حال المصريين بكافة الوسائل التى تحت سلطته». وكانت هذه الإشارة الدقيقة فى نقطة واحدة، والعامة فيما يتعلق بالباقى، هى تحديد المهمة السياسية والمدنية التى كان على لجنة العلوم والفنون أن تساهم فيها.

فرنسوا شارل-رو

* * *

(١) القرار الصادر فى ٢٣ جرمينال العام السادس، ١٢ أبريل ١٧٩٨. وارد فى لاجونكيير المرجع السابق المجلد الأول.

السياسة الإسلامية لبونابرت

مجلة الدراسات النابليونية

السنة الرابعة عشرة - المجلد الرابع والعشرون

يناير - يونيو ١٩٢٥

إن الشعور الدينى والإهتمام الروحى لكل محركات نفسية المواطنين، والمبالغ فيها إلى درجة التعصب والمدان لإجراءات تافهة شكلاً، كان هو الشيء الوحيد الذى يمكنه خلق أصعب المشاكل بالنسبة للغازى.

وقد كتب بونابرت قائلاً[١]: «إن السياسات التى كانت أفضل ما لاحظت من مهارة الشعوب المصرية هى تلك التى اعتبرت أن الدين هو العقبة الأساسية لاستقرار السلطات الفرنسية، فقد كتب فولنيه قائلاً عام ١٧٨٨، لكى تستقر فى مصر لابد لك من شن ثلاثة حروب: الأولى ضد انجلترا، والثانية ضد الباب العالى، والثالثة -وهى أصعبهم جميعاً - ضد المسلمين الذين يكوّنون غالبية شعب ذلك البلد».

وبونابرت، الذى لم تكن أولى هذه الحروب لصالحه، والذى يستشف التهديد الثانى تحت صمت تركيا وإن كان يأمل تفادى الحرب الثانية، كان بونابرت أكثر قلقًا لإثارة الثالثة. فمحاولة تكذيب نبؤة فولنيه والاستحواذ على كافة الأسباب التى يمكنها أن تبعد عنه سكان مصر، كانت - فى نهاية المطاف - هدف سياسته المحلية. إلا أن التأثير بصفة خاصة فى أحد هذه الأسباب، وهو أكثرها أهمية، يمثل موضوع جزء من هذه السياسة المحلية التى لابد أن نفرد لها مكانًا على حدة هى: سياسته الدينية.

---

(١) راجع برتران «**حملات مصر وسوريا**» المجلد الأول، صفحة ٢١١.

فلم يسبق لأى مستعمر أوروبى أن واجه الإسلام باستعدادات أكثر تسامحاً بل وأكثر تعاطفاً[١]. فلم تكن هناك أية خلفية للتبشير بالمسيحية، ولم تكن هناك أية أفكار مسبقة دينية تؤثر على فكر بونابرت بصورة مضرة بالمسلمين. وبصفتهم كفاراً أو غير مؤمنين[٢]، فلم يعانوا من جانبه أى عداء أو احتقار. فقد كان وقتها مليئاً بالأفكار التى روجتها الثورة، مستقلاً عن الكنيسة الكاثوليكية، ومعادياً للتطرف البابوى حتى يحتاط ضد أتباع الإسلام لمجرد أنهم أغراب عن الإيمان المسيحى. إلا أنه كان أيضاً شديد الروحانية، ويؤمن بالإله على طريقة عصره بل متديّن على طريقة كل العصور لكى يحتاط ضدهم لمجرد أنهم مؤمنون مقتنعون ينتمون ويمارسون ديانة لها عقائدها وعبادتها. إن إيمانهم العميق، وورعهم، والعقيدة الأساسية لدينهم – وهى التوحيد بالله – لم تكن أبداً لتجرح أفكاره الفلسفية، فهو يحترم إيمانهم، ومفهومه للإله أقرب ما يكون للعقيدة التوحيدية للإسلام منها لعقيدة التثليث لمختلف الديانات المسيحية. إن محمداً يثير إعجابه[٣] كمؤسس دينى، وقائد للشعوب، ومشرّع. إن التاريخ ومذهب النبى كانا قد أثارا اهتمامه منذ زمن بعيد، وقبل حتى أن يعرف أن قدره سيقوده إلى مصر بدأ يدرس تاريخ العرب[٤]. كما قرأ القرآن وكان يحتفظ بنسخة منه فى مكتبته أيام الحملة إلى جانب العديد من الكتب الدينية[٥]. فالإسلام يستحوذ على خياله من قبل أيام الحملة على مصر، وقد ازداد كثافة أثناءها وامتد بعدها. وأثناء اعتقاله، كم عاد بذاكرته إلى العالم الإسلامى، وفى تلك الأحاديث

---

(١) «**بونابرت والإسلام**» بقلم س. شرفيل. باريس، بدون، ١٩١٤.

(٢) هكذا وصفهم للمسلمين فى كتاباتهم!!!(المترجمة).

(٣) «محمد كان رجلاً عظيماً». برتران، (**حملات مصر وسوريا**) المجلد الأول صفحة ٢٠٨.

(٤) يوجد بين مخطوطاته وهو شاب ملخص لتاريخ العرب للأب مارينى وهذا المخطوط تم طبعه مع غيره ومن بينها ملاحظات عن تاريخ مصر القديمة بقلم فريدريك ماسون تحت عنوان «**نابليون المجهول**».

(٥) العهد القديم والعهد الحديث، والفيدا، والأساطير.

التى كان يمليها فى سانت هيلين، توجد بضعة صفحات وهى أكثر الصفحات الموضوعية وأكثرها تعاطفاً بين كل ما كتب عن الإسلام فى إحدى لغات الغرب.

وإقناع المسلمين فى مصر بحسن نواياه، الودية الحقيقية والتى يشعر بها فعلاً، والإعراب لهم عنها وإثباتها لهم هى فى نهاية المطاف بمثابة كل السياسة الدينية لبونابرت. فلم يقم أى مستعمر أوروبى بالكشف عن نوايا أكثر إخلاصاً وإعلانها بصورة قاطعة، أو قدم أدلة متعددة وواضحة أكثر من ذلك.

ومنذ وصول بونابرت إلى مصر بدأت التصريحات والأدلة، الكلمات والأفعال. ففى أول بيان له للمصريين، دافع بحماس عن أنه لم يأت لهدم دين المسلمين، وأعلن عن احترامه لله، ونبيه والقرآن، كما أعلن ضمناً عن انضمامه للإسلام زاعماً بأنه يُعتبر هو وجنوده كمسلمين حقيقيين، وأشار أيضاً فى هذا البيان إلى إلغائه منظمة مالطة الدينية، وإلى عداءات الجمهورية ضد الكرسى الرسولى، وإلى التحالف القديم بين فرنسا والباب العالى العثمانى. ومثلما أوضحة بنفسه للإدارة[1] فقد كان منزله بالإسكندرية باستمرار مليئاً بالأئمة والقضاة والزعماء والمفتين أو زعماء الدين وقد تعهد أمامهم كتابة بأن يفرض احترام الدين والعبادة، وقد نفذ كلمته إذ أنه فرض على جنوده هذا الاحترام. ووفقاً لأقواله شخصياً فقد استمرت الصلاة فى كل مكان كالمعتاد. عند دخوله القاهرة، جدد نفس التعهدات وأعرب عن نفس الإعجاب «بدين النبى وأنه يحب هذا الدين».

وكل هذه الاحتياطات لم تغيّر من الريبة والعداء اللذين كانا يعكسهما الفرنسيون – بحكم أنهم كفرة – على أغلبية المسلمين فى مصر. لكنها بلا شك قد ساهمت فى تهدئة ما وقع فى الإسكندرية ورشيد والقاهرة. لكن فى المناطق الأخرى من بقية القطر فإن المواطنين لم يصدقوا الكلمات التى وصلتهم عبر البيانات، ودون حتى انتظار رؤية الفرنسيين فى العمل، تعصبوا فى ألا يروا فيهم سوى أعداء للإسلام. «إن

---

(١) خطاب ١٨ مسيدور ٦ يوليو. مراسلات نابليون رقم ٢٧٦٥.

الفرنسيين ليسوا سوى مقبولين على مضد من أتباع الإسلام، الذين أذهلتهم سرعة الأحداث، فانحنوا أمام القوة، لكنهم ينعون سوء الحظ الذى نصر الكفرة الذين دنس وجودهم المياه المقدسة، ويئنون من الخزى الواقع على أول مفتاح للكعبة الشريفة[١].

وهو سبب أساسى لثورات الأقاليم، فهذا النوع من النفور الدينى يدعّم حتى فى الأماكن الخاضعة للنظام والأمن تهديداً دائماً من القلاقل. إن العداء بل الخيانة فى حق الكفرة، الذين هم الفرنسيون، يعد بمثابة فخر أو مجد حتى فى أعيّن الذين يدفعهم الحرص على الطاعة: فعندما اقتيد السيد محمد كريم، زعيم الإسكندرية الذى خان كليبر، من أبى قير إلى القاهرة تزاحم سكان رشيد – حيث تفاخر منو **Menou** بانه أقر وفرض سلطته بصورة قاطعة – من كل مكان لتحية السجين[٢] وقد دعى الأئمة إلى حرب قلما نجا منها غزاة أوروبيون فى بلد الإسلامى، فقد كانت حرب الجهاد كامنة فى مصر. وكتب بونابرت فيما بعد: «إن نبؤة فولنيه على وشك التحقيق» إذ كان الموقف يبدو فى نظره أشبه ما يكون بمعضلة: «فإما الإبحار عودة، وإما المصالحة مع الأفكار الدينية، ونبتعد عن لعنات النبى، وألا نترك أنفسنا نوضع فى صفوف أعداء الإسلام»[٣]. أى أن التجربة أثبتت أنه لكى يوضع المرء فى مصاف أصدقاء الإسلام، لا يكفى أن تقف فيها بنفسك. فمهما كانت إثباتات الصداقة مخلصة من قبل كافر فإنها ستظل دائماً موضع شك. فلم تكن هناك فرصة للجماهير إلا أن تستمع إلى بيانات الزعماء الدينيين المسلمين، ويسمحون لهم ويأمرونهم بالطاعة إلى الفرنسيين «فكان لابد من إقناع المفتين والعلماء والزعماء والأئمة وكسب جانبهم ليقوموا بتفسير القرآن لصالح الجيش».

ويوجد فى القاهرة مسجد يجمع فى طابعه بين المدفن المبجل بصفة خاصة

---

(١) برتران: «**حملة مصر وسوريا**» المجلد الأول صفحة ٢١١. يطلق المسلمون على مصر «أول مفتاح للكعبة الشريفة» وذلك بسبب اقترابها من المدن المقدسة مكة والمدينة.

(٢) راجع لاجونكيير المرجع السالف الذكر المجلد الثانى صفحة ٤٥٢.

(٣) برتران: (**حملات مصر وسوريا**) المجلد الأول صفحة ٢١٢.

وجامعة إسلامية مشهورة فى كل العالم الإسلامى: إنه المسجد الأزهر. فتحت أروقته وفى فنائه المضيء وبهوه ذى الأعمدة المصطفة التى تدفق عليها فيما مضى، أيام الخلفاء، أكثر من ١٢٠٠٠ طالب قادمين لا من مصر وحدها ولكن من جميع أنحاء العالم الإسلامى: أتراك من أوروبا وآسيا، مغاربه من طرابلس وتونس والجزائر والمغرب، ومن فارس، فُرس سكان سمرقند وبخارة، هندوس حبشيون، سودانيون إلخ... وفى الفترة التى سبقت الحملة الفرنسية انخفض عدد الطلبة إلى حوالى ١٢٠٠، والتعليم الذى كان يتضمن أصول الفقه والشرع والطب والرياضيات والتاريخ، قد انحصر – بخلاف القرآن – إلى مبادئ المعارف وإلى اللغة العربية. ومع ذلك، وإن كان قد انحدر عن روعته السابقة، فما زال الأزهر يعد أحد أنشط مراكز تعليم القرآن، وأحد المقار التى يشع منها الإيمان الإسلامى على العالم، وهو مازال يأوى فى حلقاته مسلمين من أجناس وأصول شديدة التنوع[١]. والأساتذة الذين يعلمون هذا الشباب المتنوع – المجتمع بحكم الصلة الدينية وحدها – عادة ما يشتهرون بالورع وبنقاء عقيدتهم ويتمتعون بسلطة معنوية معينة. ومشايخ «سوربون الأزهر» على حد قول بونابرت، يمكنهم أكثر من مشايخ أى مسجد آخر معارضة أو مساندة سياسته حسب الحالة.

ولقد لجأ إليهم بونابرت ليحصل على «فتوى» تفسير قرآنى، نوع التولية التى كان يتمناها لتدعيم سلطاته «إن الحصول على بيان لصالح الفرنسيين من هؤلاء الأعيان الدينيين كان بمثابة نصر معنوى يكمل نصر الأهرامات[٢]. هكذا كانوا يظنون من حوله، وهكذا كان يعتقد هو شخصيًا. وقد راق له أن يحكى فيما بعد بأية جهود مثابرة استطاع أن يحقق هذا النصر المعنوى»[٣].

---

(١) راجع (**وصف مختصر لمدينة القاهرة والقلعة إلخ**).. بقلم جومار فى «**وصف مصر**»، العصر الراهن، المجلد الثانى. ويذكر جومار من بين الذين يرتادون على الأزهر «فرس – سوريون وأكراد، وعرب من الحجاز واليمن وأفارقة، غربيون».

(٢) «**التاريخ العلمى والعسكر إلخ..**» المجلد الأول (الحملة) صفحة ٢١٩.

(٣) راجع برتران: «**حملات مصر وسوريا**» المجلد الأول، الفصل المعنون: شئون دينية. راجع أيضًا **فرنسا فى أفريقيا** بقلم الكومندان إدمون فيربى، الفصل المعنون: بونابرت والعلم الإسلامى.

وإذ أصبح مفتو المذاهب الأربعة التى تتقاسم الإسلام وكذلك مشايخ الأزهر – فى المجال المدنى أهم أعوان إدارته ومساعدى سلطته اعتادوا على الذهاب إلى مقر القيادة صباح كل يوم، وفقًا لما أملاه بونابرت فى سانت هيلين، وثلاث أو أربع مرات فى العشرة أيام، وفقًا لخطاب كتبه هو إلى مارمون[1] Marmont. وكل مرة تعد هذه المجادلات بالنسبة لبونابرت فرصة ليدبر الحديث حول الدين، وأن ينطلق فى مناقشات دينية حقيقية تسمح له بها درايته بالقرآن وتعوض تدريجيًا فجوات معلوماته. وفى مثل هذه المدرسة، سرعان ما أصبح «كالطالب» وقد اختبر ذلك النوع من المناقشات كأكثر المشايخ حنكة وأكثرهم رهافة. وبانتهازه فرصة انتصاراته الشخصية، كان يضع محدثيه فى مواقف حرجة بذكر أجزاء من القرآن تنبىء عن مقدمه من الغرب إلى ضفاف النيل. فهل كان بوسعه أن يهزم المماليك لولا حماية الله ومحمد له[2]؟ وهل كانت هذه الحماية ستعطى له لو لم يكن المماليك يستحقون الجزاء ولو لم يكن هو يستحق مساندة الله ومحمد؟ وحينما شعر أنه قد تم تملق المشايخ والمفتين بالقدر الكافى بوسائله الناجعة وأنهم قد اقتنعوا بنواياه الحسنة، بدأ يشكو لهم من الأئمة الذين يعملون على إشعال حرب الجهاد فى الأقاليم، ثم ذات يوم قال بحرقة لعشرة منهم بعد أن تأكد من ثقتهم: «إنى بحاجة إلى فتوى من جامع الأزهر تأمر الشعب أن يؤدى قسم الولاء». وأصيب المشايخ بالذهول والذعر، ثم سرعان ما وجدوا مخرجًا، فبما أنه شديد الإعجاب بهذا القدر بمحمد ويُرجع نجاحاته إلى حماية الله للإسلام، فلماذا لا يسلم هو وجيشه بأسره؟ وعندئذ لن يترددوا فى أن يقدموه للشعب على أنه مرسل من قبل الله، كصديق للنبى، وسيستمع الجميع لندائهم.

---

(١) «أذهب إلى الشيخ المسيرى وأبلغه أننى ألتقى ثلاث أو أربع مرات فى العشرة أيام، مع رؤساء الشرع وأهم زعماء القاهرة، وأنه لا يوجد شخص أكثر منى اقتناعًا بنقاء وقدسية الدين الإسلامى» بونابرت إلى مارمون، ١١ فروكتيدور – ٢٨ أغسطس ١٧٩٨. مراسلات نابليون، رقم ٣١٤٧.

(٢) هذا مرجعه فهمهم الخطأ للإلوهية وللقرآن (المترجمة).

وسيتكالب المصريون والعرب تحت راياته. وفى هذه المرة كان الدور على بونابرت أن يشعر بالحرج.

وحتى إن لم يكن موقفهم إلا مناورة تسويفية، فإن اقتراح المشايخ قد وضعه فى مأزق. فإنه قد تمت محاصرته عن قرب، وأن مسألة علاقته بالإسلام قد أدت إلى إثارة مسألة اعتناقه الإسلام كشرط أساسى للولاية الدينية التى كان يطمع فيها. وفيما بعد، وبينما كان يتحدث عن ذكريات هذه المساومة الغريبة تنوعت آراء بونابرت حول الموقف الذى سمحت له الظروف بتبنيه. فتارة يقول إنه لو كان أسلم لاضطر جيشه إلى اتباع خطاه[١]، وتارة أخرى يعترف أن الاحتمال كان من المستحيل[٢]. وفى واقع الأمر، فإن كانت مجرد تعديلات فى زى فرق الجيش كانت تقابل باعتراضات كان على بونابرت أن يرضخ لها، فمما لا شك فيه أن الاعتناق الجماعى للإسلام لم يكن الجيش ليقره أبداً[٣]. ولا شك فى أن بونابرت قد أدرك ذلك، حينما وجد نفسه أمام هذا العرض غير المتوقع، ولكى لا يرد بالرفض، فقد قرر المخادعة.

فأجاب قائلاً: هناك افتراضان يعترضان إمكانية اعتناقه هو وجيشه الإسلام وهما: الختان وتحريم شرب النبيذ. والأهم من ذلك، أنه قبل أن نصل إلى عملية الاعتناق هذه، فيجب أن تمنح فرق الجيش الوقت الكافى للتعرف على عقائد الإسلام وممارساته، وأنهم بحاجة إلى عامين لتحقيق ذلك. أما فيما يتعلق به، ونظراً لاقتناعه بأن دين محمد ديانة ممتازة، فقد وعد ببناء مسجد على نصف فرسخ حيث يمكن للجيش بأسره أن يقف فيه. وسرعان ما أمر بإعداد الرسومات الخاصة وبالنقود اللازمة.

---

(١) «ومع ذلك، فلم يقال أنه كان من المحال أن الظروف كانت قد تضطرنى إلى تبنى الإسلام ألا يتصور أحد أن كل امبراطورية الشرق وربما تبعية كل آسيا لا تستحق أن ارتدى العمامة والخف؟ ففى حقيقية الأمر ذلك هو كل ما كان سيكون فى الأمر. لم نكن سنفقد إلا سراويلنا وقبعاتنا، أقول نحن، لأن الجيش، فى الحالة التى كان عليها لم يكن ليتردد بل ولما رأى فيها إلا ضحكا ومزاحاً وارد فى شرفيس المرجع المذكور صفحة ٢٣٨.

(٢) «**التاريخ العلمى والعسكرى إلخ...**» المجلد الأول (الحملة) صفحة ٢٢٠.

(٣) والدليل على ذلك كل السخرية التى لحقت باعتناق منو الإسلام.

وبعد عدة مشاورات أحضر المفتون الأربعة إلى بونابرت فتوى وقد كتبوها ووقعوا عليها. وكانت مرضية حول مسألة الختان، لكنها صارمة فيما يتعلق بالنبيذ. وبناء على اقتراح من أحد مشايخ الأزهر، تم اختصار الفتوى إلى جزئين الأول والذى رغم مساسه بإحدى العادات الطقسية للإسلام، أقرت فيه بقبول الفرنسيين مع المسلمين، وما أن تم بهذه الصورة تبادروا بإذاعته فى كل المساجد. أما الجزء الثانى، فقد أخضعه المفتون إلى مناقشة جديدة وأرجعوها إلى مكة، وأخيراً أحضروا فتوى لبونابرت، تقوم بتفسير القرآن فى هذه النقطة بصورة لصالح عادات الجنود « وقد تم إعلان البيان من أعلى مآذن المسجد الكبير وسرعان ما تداولها مؤذنو المساجد الأقل شأنا ليعلنوها على الشعب ساعة الصلاة »[١] . فهل يتعيّن، علينا أن نفهم، حسب تأكيدات مؤلفو **«التاريخ العلمى والعسكرى للحملة»** أنه « منذ هذه اللحظة استتبت الثقة الكاملة؟ » ستكون مبالغة شديدة. فلا المشايخ الذين انصاعوا لرغبة بونابرت ولا الشعب الذى وجهوا إليه نصائحهم كفوا عن اعتباره هو شخصيًا وجنوده رجالاً أغرابًا عن إيمانهم. بل ولا حتى تخلى القائد الأعلى والجيش بأسره عن مظاهر المسيحية ولم ينزع عنهم صفة الكفر هذه والتى لم تكن لتمحى إلا باعتناق الإسلام، شريطة أن يكون هذا الاعتناق صريحًا مخلصًا. فلم يكن من المهم « الجيش لم يرتد الكنائس فى إيطاليا أن يرتادها فى مصر[٢] أو إن أى آثر خارجى للمسيحية بل أية عادة دينية كانت ستختفى من صفوف الجيش ». فرغم ابتعادهم عن الكاثوليكية، لم يكن الفرنسيون ولا قائدهم أقل كفراً من أجل ذلك. وإنما كانوا كفاراً متسامحين، حسنى النوايا لأتباع النبى، وكان عدم اكتراثهم الدينى هو الجانب الوحيد الذى كان يمكنه أن يفيدهم فى إسهامهم فى فرض الثقة بتسامحهم وبحسن نواياهم.

ولقد جاهد بونابرت ليعرب عن ذلك بأفعاله. فإذا ما قام بعض الجند وهم

---

(١) راجع برتران (**حملات مصر وسوريا**) المجلد الأول، صفحة ٢١٨ .

(٢) راجع الكومندان فيرى المرجع السالف الذكر، بناء على إملاءات نابليون فى سانت هيلين حول حملاته فى مصر وسوريا.

يعملون فى بعض التحصينات بهدم بعض المقابر يتم لومهم، وتوقف الأعمال، ويعاد بناء المقابر ويسمح للمفتى بمواصلة التقاليد المتبعة[١] . هل كانت إدارة مسجد السلطان حسن سيئة رغم الهبات الثرية التى يمتلكها؟ كان بونابرت يذهب لزيارته فجأة فى ساعة الصلاة ويُحضر الأئمة ويقوم بتوبيخهم ويأمر بإجراء تحقيق ينتهى بإلزام المخلّون بإعادة ما استولوا عليه[٢] . وإذا ما أتت اللحظة التى ينتظرون فيها عودة الحجاج الذين ذهبوا إلى مكة والمدينة، يعلق بونابرت أهمية قصوى على أن تتمكن القافلة – مثل كل عام – من أن تصل إلى القاهرة سالمة. وبإعطائه الأمر إلى برتييه الذى يكون الديوان يكتب قائلاً: «إن همك الأول هذا المساء أن تجعل الديوان يكتب للقافلة أن تحضر بلا أية مخاوف[٣] ولدرايته بدور هذا الحج السنوى فى الحياة الدينية للإسلام، فإن بونابرت يدرك تمامًا الخطأ الذى سيقع على الاستعمار الفرنسى فى مصر، إن أمكن القول، أن يمس إتمام هذا الواجب المقدس. فلم يكن الأمر يتعلق بالمصريين وحدهم وإنما بالليبيين والتونسيين والجزائريين وسادة المغرب الذين يستخدمون جميعًا الأراضى المصرية للوصول إلى البلاد المقدسة ويعودون منها، كما ستثير غضب أهل المدينة ومكة الذين سيستفيدون بسخاء من هذا التدفق السنوى. أى أن سمعة الحكومة الفرنسية فى كل شمال أفريقيا من جهة، وفى الحجاز من جهة أخرى، كانت تتعلق بالعقبات أو التسهيلات التى كان بونابرت سيضعها فى طريق الحجاج، وكذلك العداء أو المساندة التى يمكن أن يلقاها من جانب أو آخر منها.

فتأكيد عودة حجاج مكة إلى القاهرة يعد أحد الإجراءات الفورية التى أتخذها بونابرت لإخلاء مداخل ضواحى العاصمة فى الجنوب وفى الشرق، من مقترحات التسوية التى أرسلها إلى مراد بك ومن العمليات العسكرية التى يقودها ضد إبراهيم بك[٤] . وقد انقسم الحجاج إلى عدة مجموعات، وفى أوائل شهر أغسطس كانوا

---

(١) راجع برتران (**حملات مصر وسوريا**) المجلد الأول صفحة ٢٣٩.

(٢) المرجع السابق صفحة ٢٣٠.

(٣) ٧ ترميدور ٢٥ يوليو. راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى، صفحة ٢٨٣.

(٤) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٣٤٤ – ٣٤٥.

على مسافة قصيرة من القاهرة، أو كان بعضهم قد وصل فعلاً. وسرعان ما بدأوا فى الظهور حتى أعطى بونابرت أوامره بأن يحسنوا استقبالهم[١]. وهكذا تم استقبال أول وحدة منفصلة عن القافلة الرئيسية فى أواخر يوليو. وتلى هذه الوحدة، فى الثالث من أغسطس، مجموعة من الحجاج من طرابلس الذين عسكروا فى بولاق على ضفاف النيل. إلا أن القافلة الرئيسية بقيادة أمير الحج[٢] صالح بك، فقد تم الإعلان عن وصولها عند ضواحى بلبيس، فى شمال القاهرة. وكانت معرضة للسقوط فى أيدى إبراهيم بك الذى كان يحوم فى هذه المناطق مع مماليكه. وقام بونابرت من ٢ إلى ١٤ أغسطس بعدة عمليات عسكرية متتالية لمطاردة إبراهيم بك حتى سوريا، لكنه لم يتمكن من منعه أن يأخذ أمير الحج معه فى هروبه. وعلى الأقل تمكنت بحمل القافلة التى تم اللحاق بها فى بلبيس من العودة إلى القاهرة تحت حماية الجيش حيث دخلوها وقد تقدمتهم فرق الموسيقى الفرنسية. ولم يتغيب منهم إلا أكثرهم ثراء، أثرياء العصابة الذين خشوا أن يقوم الفرنسيون بتفتيشهم، فآثروا التعرض لملاحقة العرب لهم بأن ألقوا بأنفسهم فى الصحراء خلف إبراهيم بك وأمير الحج. ووقع لهم ما خشوه فقد أخذ منهم العرب نقودهم، وحاجاتهم وركائبهم وتركوهم خلاء فى حالة يرثى لها من الحزن. ولم يكتف بونابرت بإنقاذهم من هذا المأزق بأن أرسل لنجدتهم، وإنما أرسل من يتبعون هؤلاء اللصوص وإعادة الغنائم إلى الحجاج غير الحريصين الذين سرعان ما انضموا فى القاهرة إلى المواكب السابقة.

ومثلما اهتم بونابرت بحماية عودة آخر حاج إلى القاهرة، اهتم أيضًا بتأكيد سلامة الحج التالى. فقد جرى العرف أن تقوم السلطات المدنية بتعيين رئيس الحج المقبل فى موعد مبكر، والذى يتعيّن عليه ترتيب الموكب تحت قيادته. منذ ١٦ فروكتيدور (٢ سبتمبر) قام بتوليه وظائف أمير الحج لباشا الإسكندرية، مصطفى بك[٣]. وتولى هو شخصيًا هذه التولية أمام الديوان، وقد أعلنها على الشعب

---

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٣٥١.

(٢) هذا اللقب الذى يعنى رئيس الحجاج هو اللقب الذى يمنح لقائد القافلة.

(٣) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ٨.

بالمدفعية وقد كسى مصطفى بك بالعباءة الخضراء المحلاة والمبطنة بالفراء الأبيض[١]. وبعد أن حصل على حلية مرصعة بالماس، اقتيد أمير الحج الجديد إلى داره على ظهر جواد مطقّم بسخاء، كان القائد الأعلى قد أهداه له، ومحاطًا بالجند بينما أطلقت المدفعية ست طلقات راحت سريات القلعة ترددها[٢]. وبناء على طلب بونابرت تم إبلاغ شريف مكة وكافة السلطات البربرية، أى بكوات طرابلس، وتونس، والجزائر بخطاب من مشايخ وعلماء القاهرة.

وذلك لأن بونابرت قد أدرك إجمالاً الترابط الفريد للعالم الإسلامى والتداخل المذهل الذى يكوّن مختلف عناصر هذه الكتلة على الرغم من البحار والصحارى. فقد كان يعلم أنه حتى لو كان ذلك التعيين قد تم قبوله فى مصر، فقد كان يمكن أن يأتيه أى تهديد من الإثارات القادمة من الخارج. لذلك أمتدت أعماله الدينية وسياسته الإسلامية إلى ما وراء الحدود المصرية، إلى القسطنطينية، مقر الخلافة، وإلى مكة، المركز الدينى للإسلام، وإلى سوريا وطرابلس وطوال الساحل الأفريقى حتى المغرب، فلقد حاول بونابرت أن يحصل على الاعتراف به وبصداقته كحامٍ للإسلام من مختلف السلطات التى تحكم هذه البلدان.

وقد أرسل فى أوائل أغسطس إلى قنصل فرنسا فى طرابلس خطابًا يكلفه فيه إبلاغ إليك أن «رعاياه يحظون بعناية خاصة فى مصر»[٣]. وبعد خمسة عشر يومًا كتب إلى نفس القنصل خطابًا ثانيًا: «أحيط البك علمًا بأننا سنحتفل غدًا بعيد مولد النبى بأكبر قدر من الفخامة وأن قافلة طرابلس ستغادر غدًا أيضًا، وقد حميتها وقد امتدحونا. حاول حث البك على إرسال الكثير من الخراف إلى الإسكندرية وأن يحيط رعاياه علمًا بأن القوافل تحظى بحمايتنا وأننا قد قمنا بتعيين أمير الحج»[٤].

---

(١) راجع «**التاريخ العلمى والعسكرى إلخ**» المجلد الثانى (الحملة) صفحة ٨٠.

(٢) راجع ايتيين جوفروا سانت هيلير – «**خطابات مكتوبة من مصر**» صفحة ٨٤ باريس، هاشيت ١٩٠١.

(٣) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٤٩٤ هامش ٢.

(٤) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٤٩٦. خطاب ١٨ أغسطس أول فروكتيدور.

ولكى يضمن وصول هذين الخطابين إلى صاحبهما وليضمن مزيداً من تبادل المراسلات بين مصر وطرابلس، فقد استخدم بونابرت مهارته واستعان بصالح رئيس حجاج طرابلس، الشيخ أبو القاسم. وقد أبرم اتفاق بين هذا الشيخ ومترجم القيادة العليا فنتور، يقوم بمقتضاه أبو القاسم بتسليم جمال ومرشد للمراسلة الفرنسى الذى سيعود إلى القاهرة بإجابات قنصل فرنسا[١].

وكانت استعدادات الزعيم الروحى والدنيوى الذى يحكم مكة تحت لقب الشريف ذات أهمية أخرى فى نظر بونابرت غير استعدادات بك طرابلس. وقد هدفت سياسة الباب العالى دائمًا إلى الإقلال بقدر الإمكان من التأثير الدينى لهذا التابع للسلطان. وقد كان موقف بونابرت على نقيض ذلك تمامًا، إذا اعتمدت سياسته على الإعلاء من قدر الشريف غالبًا، الذى يجد نفسه، بحكم احتياجاته، فى تبعية الاقتصاد المصرى. كما عمل على تنشيط العلاقات التجارية والسياسية والدينية معه، بحيث يأمن جانبه عرفانًا بجميل رد اعتباره ومصالحه الشخصية[٢].

وقد كتب له بونابرت مرتين على مدى يومين. «وإذ أحيطكم علمًا بدخول الجيش الفرنسى إلى مصر، أعتقد أنه علىّ أن أؤكد لكم نيتى الخالصة فى أن أحمى حجاج مكة بكل ما فى يدى من وسائل. إن كافة المساجد والمؤسسات التى تمتلكهما مكة والمدينة فى مصر ستستمر ملكًا لهما كما فى الماضى نحن أصدقاء المسلمين ودين النبى، ونرغب فى القيام بعمل كل ما يرضيكم ويكون صالحًا للدين»[٣]. وفى الخطاب الثانى[٤] راح بونابرت يجدد نفس العروض مضيفًا تعيينه لأمير الحج.

---

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٤٥١ خطاب ١٧ ترميدور ٤ أغسطس.

(٢) راجع برتران (**حملات مصر وسوريا**) المجلد الأول صفحات ٢٢٧ – ٢٢٨.

(٣) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٩. خطاب ٨ فروكتيدور ٢٥ أغسطس.

(٤) خطاب ١٩ فروتيدور ٢٧ أغسطس. راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٩.

إلا أنه كان يخشى أن تكون كلمة أحد الكفرة قريبة لدى شخص فى مثل هذه القدسية لذلك أصر على أن تذهب سلطات عليا دينية مسلمة إلى شريف مكة لتضمن الاستعدادات التى يعلنها. وذلك هو هدف الخطاب الذى طلب من مشايخ وعلماء القاهرة أن يكتبوه له فى ٢٠ ربيع أول ١٢١٣ (١٥ فروكتيدور أول سبتمبر). وكان عبارة عن سرد لانتصارات الجيش الفرنسى على المماليك، ومدح فى أخلاقيات ومشاعر الجنرال حيال الدين الإسلامى، وإحصاء لكل ما أعرب عنه هو وجنوده: كالإجراءات التى اتخذها لتأكيد حرية العقيدة، وحماية الحجاج، والاحتفال بالأعياد المعتادة وتعيين أمير الحج، كما أشاد بما قام به بونابرت والفرنسيون من حل منظمة مالطة الدينية، وإسقاط سلطة البابا، ومدح استقامتهم الإسلامية لأنهم يعترفون بوحدانية الله ويبجلون النبى والقرآن. وكان هذا الخطاب المرسل إلى شريف مكة، يجب أن يكون وفقًا لتصور بونابرت، بمثابة بيان إذ أنه أعطى أوامر إلى كليبر ليطبعه فى الإسكندرية. ويرسل له ٦٠٠ نسخة إلى القاهرة وأن يقوم بتوزيع ٤٠٠ فى منطقة الجزر[١].

وفى نفس الوقت الذى كان يسعى فيه بونابرت إلى تدعيم مكانته فى طرابلس ومكة ومنطقة الجزر، كان يحاول نفس الشىء مع فلسطين وسوريا. إذ أن خطراً كان يداهمه من هذا الجانب أكثر إلحاحًا وأكثر خطورة من أي جهة أخرى. ففى عكا يوجد بالفعل حاكم شبه مستقل، على أكبر جزء من سوريا وفلسطين، وقد اشتهر هذا الباشا باضطهاداته للفرنسيين. إنه أحمد باشا الجزار. ولم تكن صحراء غزة تمثل عقبة أمام قوات ذلك الطاغية الشرس المتعصب والقوى، وهى قوات متعددة نسبيًا، ومكونة من سلاح مشاة وفرسان وكان لا يكف عن التدخل فى المنافسات بين بكوات مصر وأرسل جيشه إلى مصر. فإذا ما تمكن من تبنى قضية إبراهيم بك، اللاجىء فى مقاطعاته، وأن يأخذ بالدفاع عن حقوق السلطان، أو حتى حقوق الإسلام، فيمكنه أن يوجد فى موقف يؤدى إلى مضايقات جادة للفرنسيين. لذلك سارع بونابرت ليؤكد

(١) لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٩.

حسن نواياه للجزار. فكتب له قائلاً[١]: «حينما حضرت إلى مصر لأحارب البكوات فقد قمت بشيء عادل ومطابق لمصالحك، بما أنهم كانوا أعداءك.. فلم آت مطلقًا لشن الحرب على المسلمين. ويجب أن تعرف أن أول ما أهتممت به فى مالطة كان الإفراج عن ٢٠٠٠ تركى من القابعين فى العبودية منذ عدة سنوات. وعند وصولى إلى مصر قمت بطمئنة الشعب وحميت المفتين والأئمة والمساجد. ولم يحظ حجاج مكة أبدًا بمثل الحفاوة والصداقة التى استقبلوا بها كما احتفلنا لتونا بمولد النبى ببذخ أكثر من أى وقت مضى». وقد سلم هذا الخطاب الضابطُ، رئيس السرية بوفوازان، المكلف بأن يشرح شخصيًا للباشا أن بونابرت راغب فى أن يعيش معه فى سلام وأن يقوم، فى مقابل ذلك، بكل الخدمات التى يمكن أن يتطلبها حسن سير التجارة والصالح العام. وأنه ليست لديه أية نية ليغزو القدس، وأخيرًا إن المسلمين ليس لديهم أصدقاء أكثر من الفرنسيين. والخطاب فحسب هو الذى وصل إلى الجزار، إذ أنه رفض استقبال بوفوازان Beauvoisin وأعاده إلى مصر دون أن يستمع إلى مبرراته[٢].

وتم إسناد مهمة مماثلة إلى رسول آخر هو مايى دى شاتورنو Mailly de Châteaurenaud، الذى أرسله بونابرت إلى اللاذقية وحلب[٣]. «نحن لم نعد من أولئك الكفرة لأزمنة البرابرة الذين كانوا يأتون لمحاربة عقيدتكم، نحن نعرف أنها سامية، وسندخلها وقد أتت اللحظة التى يتجدد فيها الفرنسيون وسيصبحون أيضًا مؤمنين حقيقيين». هكذا تحدث بونابرت إلى باشا حلب فى الخطاب الذى حملة مايى دى شاتورنو[٤].

وفى نفس أثناء هذه المحاولات المتتالية مع السلطات التابعة للسلطان تتواكب

---

(١) فى ٥ فروكتيدور ٢٢ أغسطس. راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٤.

(٢) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٦ – ٥٣٩ «والتاريخ العلمى والحربى إلخ» المجلد الثانى (الحملة) صفحة ٢٤٧.

(٣) راجع لاجونكيير المرجع المذكور مجلد ٣ صفحات ٦٦ – ٦٨.

(٤) **التاريخ العلمى والعسكرى** إلخ المجلد الثانى (الحملة) صفحة ٢٤٦.

المحاولات التى أشرنا إليها سالفا للعمل فى نفس مركز الامبراطورية، فى القسطنطينية، والدخول فى علاقات مباشرة مع الباب العالى.

أى أن المراسلات قد أمتدت علمياً إلى كل العالم الإسلامى العثمانى ومن خلالها، فإن السياسة الإسلامية لبونابرت، إضافة إلى الخطابات التى سيرسلها إلى تيبو صاحب Tippoo Sahib، وسلطان دارفور، وسلطان المغرب، قد هدفت إلى الاتصال بمجمل العالم الإسلامى، باستثناء فارس وآسيا الوسطى. ومثل هذه المراسلات الواسعة النطاق، والتخطيط لمثل هذه السياسة الخارجية العريضة، كانت بلا شك تتعدى الاحتياجات الفورية لحماية مصر من التهديدات أو المؤثرات الخارجية. وبعيداً عن هذا الاهتمام الدفاعى فإنها تتضمن هدفاً أكثر إيجابية ستؤكده أفعال وعبارات لبونابرت تكشف عن وجودها فى ذهنه. فحينما تسلم من الإدارة مهمة تنفيذ المشروع الذى اقترحه تاليران للقيام بحملة على مصر، فلم يمنع بونابرت خياله، الذى انجذب إلى مصر والشرق أثناء حملته على إيطاليا، من أن يوسع المهمة التى أُسندت إليه. فدون حتى أن يتحدث عن إمكانية حملة على الهند، والتى لعله كان قد حصل على موافقة باريس بها، ألم تكن له نظرة حول الشرق ليست قاصرة على حدود مصر؟ إن مشروع التدخل فى سوريا سواء بموافقة الجزار، إذا ما استطاع أن يكسبه إلى مصالحه، أو بواسطة السلاح فى حالة رفضه، كان على أى حال فى البداية من بنات أفكاره: فلا يمكن أن نفسر بطريقة أخرى العرض الذى عرضه على مراد بك، منذ أول أغسطس ١٧٩٨، بمنحه إمارة فى سوريا إذا ما استطاع الجيش أن يمد عملياتـه إلى هناك. وإذا ما كان الحظ قد ساندە أمام عكا، ترى أى تطور كان سيضفيه على مهمته الشرقية؟ أكان بسبب القيمة الجوهرية لسوريا أنه صاح إن الحظ قد خانه أمام عكا؟ من الصعب الإقرار بذلك. إذ يبدو جلياً أن بونابرت فى الواقع قد رأى فى غزو مصر الشرط المبدئى والمرحلة الأولى لمشروع أكثر اتساعاً وأكثر ضخامة، والذى لم يعرب عنه أبداً بوضوح وإنما كان يحاول أن يخلق فى الشرق البحر أوسطى بعد أن يقوم بتحويله، عملية تحول رهيب فى صراع فرنسا الجمهورية مع أوروبا الملكية. وأن مصر لم تكن بالنسبة له

سوى قاعدة عمليات لعملية أكبر بكثير من الحملة المبدئية، وفى نفس الوقت العتلة التى سيمكن بواسطتها تحريض العالم الإسلامى بأثره. وأن الأمر ليس مجرد حماية مصر من دعاية معادية للسيطرة الفرنسية، وإنما تمهيد الطرق لأهداف لاحقة ستؤدى إليها سياسته الإسلامية بإطلالها على الخارج، بحثًا عن خلق جو من التأييد والتعاطف والثقة حول نفسه ومصيره فى الإسلام بأسره.

لقد رأينا للتو ما ادعاه بونابرت لنفسه لدى السلطات الإسلامية فى أفريقيا وآسيا، والصخب الذى احتفل به بمولد النبى فى القاهرة. فالأهمية المضفاة على الاحتفالات المحلية التقليدية والعناية بها من السمات المميزة لعمله السياسى. والعالم الإسلامى تعتريه مناسبات دينية تعد فى مصر، وفى كل الأراضى الإسلامية، مناسبة لاحتفالات شعبية كبرى. ومثلما هو كائن فى كل مكان آخر، فإن التقاليد المحلية قد أقرت عادة الأعياد الخاصة بالبلد. وحياة الأهالى لها إيقاعها الناجم عن العودة الدورية لهذه الاحتفالات العامة، والتى يعد إلغاؤها فى حد ذاته نحسًا ودليلاً على قلاقل عميقة، ولم يهتم بونابرت بإبعاد سيطرته عن مثل هذه الآفات التى كان سيؤدى إليها ترك مثل هذه التقاليد التى يبجلها الشعب فحسب، وإنما حاول أن يجعلها تستفيد من الشعبية التى يمكن أن تكسبها بالبريق المنفرد لمثل هذه الأعياد، والتى كان يزيدها مساهمة السلطات والفرق العسكرية الفرنسية.

ولقد أتيحت له مثل هذه الفرصة بعد دخوله مصر بأقل من شهر. فالنيل، الذى يعد فياضانه العنصر الأساسى للرخاء الزراعى فى مصر، كان منذ القدم، لدى المصريين، مجال احتفال هو أقرب من الطقس الدينى الذى ظلت ذكراه – الذى احترمها الإسلام – تتواصل كعادة يحتفل بها بصخب عند بداية فيضان الأراضى. فعندما يصل فيضان النهر الذى يبدأ فى يونيو، إلى ارتفاع ١٦ قدمًا فى المقياس الموجود فى الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة، يفتح الهويس المقام لحجز المياه عند مدخل قناة شق القاهرة. إن فتح هذا السد، ودخول المياه فى هذه القناة أو «الخليج» تصاحبه حفلات رسمية وبهجات شعبية. وحينما وصلت الفترة العادية لهذه الاحتفالات،

كان بونابرت عائداً لتوه من حملته ضد إبراهيم بك، كما علم من جهة أخرى بنبأ رهيب هو الفاجعة البحرية فى أبى قير التى تركت الجيش بلا أسطول، ومقطوع الصلة مع وطنه الأم، ومحبوس فى مصر. فتعويض الانعكاس المعنوى لهذه الهزيمة على الجيش وعلى الأهالى، كان سبباً بالنسبة له ليشارك ويشرك فرقه فى احتفالات «عيدالنيل».

ففى أول فروكتيدور (١٨ أغسطس)[١]، فى السادسة صباحًا، خرج ممتطيًا جواده، ومحاطًا بحرس يتداخل فيه ذلك الخليط الذى يحبه – جنرالاته، وقيادته العامة، كيايا الباشا وأعضاء الديوان، والموللا[٢]، وأغا الانكشارية وغيرهم من أعيان البلد. وقد اصطف جزء من الحامية تحت السلاح بطول القناة، وستة أساطيل المراكب المزينة بالأعلام على شطآن النيل. وقام سلاح المدفعية فى الموقع وفى السكنات بتحية وصول الموكب إلى المقياس وإعلان إتمام الطقس الغريب الذى بمقتضاه يتم إلقاء تمثال امرأة، هى عروس النيل، فى المياه. وانضمت إيقاعات الموسيقى الفرنسية إلى الموسيقى العربية بينما كان العمل جاريًا لكسر السد. وقام بونابرت بنفسه بتسليم الجائزة لطاقم أول مركب دخلت القناة، بينما ألقى إلى الجماهير حفنات من الملاليم، وألبس الموللا العباءة السوداء، والنقيب رجا[٣] العباءة البيضاء، كما قام بتوزيع ثمانية وثلاثين قفطانًا لأهم المسئولين، وحضر كتابة المحضر الخاص بكسر السد وإثبات ارتفاع منسوب الفيضان إلى ١٦ ذراعًا وخمسة قراريط، وشكر الله على هذه النعمة[٤]. وقد

---

(١) لقصة هذا الاحتفال راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى، صفحة ٤٨٠، و«**التاريخ العلمى والعسكرى إلخ..**» المجلد الأول (الحملة) صفحات ٣٧٤ – ٣٧٥، ولم يكن الاحتفال بزيادة النيل من قبيل الطقس الدينى كما زعم.

(٢) كان من ضمن مهام الموللا الحفاظ على مقياس النيل. راجع فى سلسلة «لكون»، «**مصر تحت الاستعمار الفرنسى**» بقلم أميديه ريم صفحة ٦٤، باريس دار نشر ديدو ١٨٤٨.

(٣) موظف مسئول عن توزيع المياه. راجع أميديه ريم المرجع السابق صفحة ٦٤.

(٤) وكما فيما مضى – فإن هذا الحصر يلزم المصريين عندما يكون الفيضان طيبًا بدفع المسيرى للديوان الأعلى إلى جانب حصة سيدنا السلطان «والحبوب الواجبة للأماكن المقدسة فى مكة والمدينة». راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٤٨٠.

فرح الشعب بوفرة الفيضان الدال على محصول وفير، وجرت الجماهير لتساهم فى الحفل بالصيحات والتزاحم، كما صاحبت القائد الأعلى العائد إلى قصره بالأزبكية، فى موكب صاخب من الصياح بل والهتافات. وقد صاحوا من حوله «نعم، لقد أتيت لإنقاذنا بإذن الله الرحيم، لأنك حصلت على النصر وعلى أجمل فيضان جاء منذ قرن، وهما نعمتان لا يسندهما إلا الله». وفى المساء، كانت شوارع القاهرة المضاءة تفيض بالمارة السوريين والأقباط واليونانيين، أما المسلمون فقد ظلوا فى بيوتهم[١].

وبعد عدة أيام أتى موعد مولد محمد، وهو مناسبة احتفالات لا تقل عن أربعة أيام وليال. وباندهاشه لعدم رؤيته بداية الاستعدادات للاحتفال كالمعتاد سأل بونابرت عن السبب وعلم من الشيخ البكرى بأنهم يستعدون بمزاعم خاطئة، هى فى الواقع ناجمة عن سوء نيتهم ضد الفرنسيين، لوقف تقليد الاحتفال بهذا العيد[٢]. فأمر على الفور بإقامة هذا الاحتفال، واتخذ بنفسه الاستعدادات لإضافة مزيد من البريق بأن يشارك فيها شخصيًا. وفى أول يوم (٢ فروكتيدور ١٩ أغسطس) ألبس الشيخ البكرى عباءة من القراء الأبيض الخاصة بمنصب كبير الأشراف[٣]، بسبب هجرة آخر من كان يمثله، وقد تم هذا التنصيب فى نفس بيت الشيخ، أما حضور قرابة المائة من رفاقه فى الدين، وجلسوا القرفصاء فى دائرة على السجادة، مربعين سيقانهم، ممسكين بالمسبحة وجسدهم يتأرجح إلى الأمام والخلف مع مصاحبة قراءة آيات القرآن. وقد جلس القائد الأعلى مثلهم على وسادة ملقاة على الأرض، وقد حافظ طوال مدة هذه الابتهالات الطويلة على هيئة التقى والورع. وما أن انتهت الصلاة حتى شارك كضيف للشيخ فى مأدبة على الطريقة التركية، ملتزمًا بالعادات والتقاليد المحيطة للولائم الشرقية، التى يستغنون فيها عن الشوكة والسكينة. كما تعلم بعد ذلك ملاذ

---

(١) راجع عبدالرحمن الجبرتى ترجمة كاردان صفحة ٢٦.

(٢) راجع عبدالرحمن الجبرتى ترجمة كاردان صفحة ٢٧.

(٣) رئيس أشراف القاهرة. راجع أميديه ريم المرجع السابق صفحة ٦٥. ويزعم المؤلف أن بونابرت كان مرتديًا فى هذه المناسبة الزى التركى وعلى رأسه العمامة ومرتديًا الخف، وأنه قرأ القرآن مع المشايخ وهو يتأرجح مثلهم برأسه وجسده. إن هذه التفاصيل ملفقة.

الشبك، الغليون المحلية، والنرجيله والقهوة التركى. وفى المساء، بعد استعراض عسكرى باهر، انتقلت القيادة العامة على أنغام الموسيقى العسكرية وأضواء الشعلات عند الشيخ البكرى. وانطلقت المدافع تحية لمحمد بينما كانت السُريجات تضاء فى المدينة. وما أن أتى الليل حتى انطلقت نيران ألعاب الصواريخ فى ميدان الأزبكية، ولعلها كانت أول مرة يراها المصريون.

وظل الصخب الغريب، خليط من البهجة الدنيوية والحماس الدينى، فى الشوارع والميادين أثناء الليل والنهار حتى ٢٣ أغسطس (٦ فروكتيدور). مروضو دببه وقرود، وساحرو ثعابين، راقصون وراقصات، مغنون ومغنيات، لاعبو أقداح، حواة، لاعبو سيوف، دراويش يهللون ويدورون، أولياء أو «نسّاك»، قذرين ومرتدين الهلاهيل، يلفتون أنظار الشعب اللاهى أو المتعطّ[١].

وقد كتب بونابرت إلى كليبر[٢] قائلاً: «كل هؤلاء الناس كان من الممكن أن يتصوروا أننا جئنا بنفس فكرة سان لوى والتى يأتون بها حينما يدخلون الدول المسيحية». ونرى من كل الوقائع التى تقدمت إلى أى مدى امتدت جهود بونابرت ليبدد هذا الشك.

وتم الاحتفال بمولد محمد فى مصر بأسرها فى نفس الوقت مع القاهرة، وحظى بنفس الرعاية من جانب السلطات الفرنسية حينما امتد الاحتلال. أما فى الإسكندرية وعلى حد قول فولفو تاريخ للحملة[٣] «فإن كليبر، المريض الغاضب، قد شارك بالكاد غصباً عنه فى هذه المسرحية الهزلية الدينية». وسواء عن طيب خاطر أو غصباً عنه فقد شارك فيها على أى حال. لأنه فى ٥ فروكتيدور ذهب مع قيادته العامة

---

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحات ٤٨١ – ٤٨٢، نقلا عن يوميات دى دتروا **التاريخ العلمى والعسكرى**، إلخ المجلد الأول (الحملة) صفحات ٢٧٧ – ٣٧٨ و«**يوميات**» فيليبه دى تراج صفحات ٧١ – ٧٢ باريس بلون ١٨٩٩.

(٢) ١٢ترميدور ٣٠ يوليو وارد فى لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٣١٦.

(٣) «**التاريخ العلمى والعسكرى**» إلخ، المجلد الأول (الحملة) صفحة ٣٧٨.

لتناول العشاء عند «الكومندان المسلم»[١]، الذى جامله بصفة خاصة بأن قدم له «طبقًا من الأرز ذا ثلاثة ألوان». وفى اليوم الثالث أمر بإطلاق ثلاث طلقات مدافع احتفالاً بمولد النبى وأضاء مبنى القيادة العامة، وفى اليوم التالى رد بدوره على العزومة بأن دعى السلطات المحلية، أعضاء الديوان والأغا، ولكى لا يخل بالآداب العامة حيال ضيوفه المسلمين، الذين قد تصدمهم رؤية النبيذ على مائدتهم، فقد وضع لنفسه مائدة مستقلة بجوار مائدتهم[٢]. وفى رشيد، كان المفتى قد امتنع، مثل الشيخ البكرى فى القاهرة، عن اتخاذ التدابير المعتادة لإقامة الاحتفالات حتى يوحى للشعب بأن الفرنسيين قد منعوها[٣]. فأمره منو بأن يلتزم بالعرف المتبع ويساهم بنفسه فى ازدهار هذه الحفلات بأن يقيم وليمة عشاء على الطريقة التركية لمشايخ البلد مصحوبة بفرقة موسيقى عربية ورقص من أجل الشعب[٤]. وتوجه وبصحبته ضباطه وبعض العلماء والفنانين الموجودين آنذاك فى رشيد، إلى الحفل الليلى الذى أحياه من أطلق عليه فيفان دينون «أول حاكم مدنى»[٥]: وكان حفلاً عربيًا، منظمًا على الطريقة المصرية فى الطريق وقد تحول إلى قاعة استقبال بواسطة الخيام والسجاد واللمبات. وفى هذا الإطار غير المتوقع، أمضى الجنرال ورفاقه الفرنسيون سهرة ممتعة حتى الصباح على مشاهدة الرقص وأنغام الموسيقى المحلية[٦].

وهكذا تم الاحتفال فى مصر، وتحت سيطرة أجنبية فى طريقها إلى الاستقرار، بالأعياد التقليدية، أعياد البلد. ولم تكن هذه الأعياد وحدها التى حاول بونابرت من خلالها البحث عن إرضاء الذوق التلقائى للمصريين للاحتفالات. ففى أول فانديمير

---

(١) لا شك أنه كان أغا فرقة الانكشارية (المترجمة).

(٢) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٠٧، وفقًا ليوميات كليبر فى القيادة العامة

(٣) فيفان دينون «**رحلة فى مصر العليا والسفلى**» المجلد الأول الطبعة الصغيرة صفحة ١٣٢.

(٤) لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥١٨.

(٥) ربما كان شيخ البلد.

(٦) راجع «**التاريخ العلمى والعسكرى**» إلخ المجلد الأول (الحملة) صفحات ٣٧٩ ـ ٣٨٥.

(٢٢ سبتمبر) فى عيد تأسيس الجمهورية، أقيم احتفال فرنسى كبير، حاول القائد العام من خلاله أن يلهب مشاعر الوطنية لدى قواته، وأن يبهر فى نفس الوقت خيال السكان المحليين.

وقبل الموعد بشهر تقريباً[١] أعلن عن الاحتفال وحدد الإجراءات الأساسية فى أهم مراكز الحامية. وقد أضاف أعتى شهود مجد مصر القديم إسهامهم فى ذلك اليوم إلى المجد الشاب للجيش الفرنسى: «إن حامية الإسكندرية ستقيم حفلها حول عمود السوارى» الذى ستعلوه الأعلام ذات الألوان الثلاثة.

كما «ستضاء مسلة كيلوباترة». وفى القاهرة، بعد الاستعراض الذى أقيم فى ميدان الأزبكية، «توجه وفد من كل سرية ليغرس العلم الثلاثى الألوان فى أعلى قمة الهرم الأكبر». أما «الفرق التى فى مصر العليا فسوف تقيم احتفالاتها وسط أنقاض طيبة».

وبعد تنسيق شديد الدقة، أقيم الاستعراض العسكرى فى القاهرة فى إطار يجمع على حد عبارة عزيزة على بونابرت، بين الغرب والشرق، بين الجمهورية الفرنسية وأتباعها الجدد المسلمين[٢]. وفى قلب الساحة الشاسع، الذى يضم محيطه من الأعمدة أكثر مما لدى فرنسا من محافظات، أقيم مدخلان، أحدهما قوس النصر، الذى رسم عليه الفنان ريجو Rigo لوحة لمعركة الأهرامات، والآخر بوابة كتب عليها بالعربية «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وعلى واجهتى المسلة القائمة فى منتصف هذه الساحة كتبت بالفرنسية العبارات التالية: «إلى الجمهورية الفرنسية العام السابع»، و«فى ذكرى طرد المماليك، العام السادس». وعلى الواجهتين الأخريين نفس العبارات باللغة العربية. وفى هذا الإطار الغريب، قام بونابرت بدعوة المشايخ أعضاء ديوان القاهرة، وممثلى دواوين الأقاليم، وأغا الانكشارية، وأمير الحج، لمشاهدة احتفال

---

(١) فى فروكتيدور ٢٨ أغسطس. راجع لاجونكيير المرجع السابق الثالث صفحات ٢٠ – ٢١.

(٢) راجع فيفان دينون المرجع السابق صفحة ١٣٣، ولاجونكيير المرجع السابق المجلد الثالث صفحات ٢٢ – ٢٣.

صمم من أجل التأثير فى آن واحد على الفرنسيين الذين يشاركون فيه، وعلى الأهالى الذين يشاهدونه، وذلك سواء فى الوفد المحيط به، أم وسط الجماهير الكثيفة المتراصة حول الأزبكية.

وكل فرق الحامية وقد أضيفت إليها الفرق المحيطة، بأجمل ما لديها من ثياب، قد اصطفت فى هيئة مربع حول الساحة فى مواجهة المسلة الرئيسية. وبعد أن قام بونابرت باستعراضها، جلس على المنصة المرتفعة عند أسفل المسلة، بين سبعة هياكل قديمة تعلوها الرايات، قامت كل الفرق الموسيقية المجتمعة بتنفيذ مارشات عسكرية وألحان وطنية. ثم أقيمت تحت أمر القائد العام تدريبات نارية. وضمت الصفوف فى كل سرية على صوت طلقات النار، ثم دخلت الفرق داخل الساحة واصطفت بانتظام لتستمع إلى قراءة البيان الذى وجهه لهم القائد العام الذى راحوا يحيونه بصيحات: «تحيا الجمهورية!» ثم أحضرت كافة الأعلام والألوية عند المنصة لاستلام الشارات التى تذكر بانتصارات الجيش على المماليك، من أيدى بونابرت. وبعد عزف نشيد «المارسييز» ونشيد «الرحيل» ونشيد آخر كتب كلماته بارسفال جرانميزون ولحنه ريجيل، انتهى الاحتفال العسكرى بعرض مهيب.

ثم أقيمت مأدبة فى ذلك اليوم بالقيادة العامة، جمعت علية القوم المحليين والسلطات الفرنسية العسكرية والمدنية. وكانت النقوش والرسومات التى تزّين قاعة الاحتفالات، مثلها مثل النقوش التى زّينت المكان الذى جرى فيه الاستعراض، ترمز إلى تقابل العنصرين اللذين يلتقيان. «فمن كل جانب كانت الرايات التركية ترفرف متداخلة مع الرايات الجمهورية، وفى أعلى حزم الأسلحة تتداخل الهلال وقبعة الحرية، القرآن وحقوق الإنسان»[1].

ورفع برتييه النخب قائلاً: «فى طرد المماليك وسعادة شعب مصر». وبعد الظهر أدت مباريات الخيل فى الأزبكية إلى مواجهة الأبطال العرب والفرنسيين. وفى المساء،

---

(١) **التاريخ العلمى والعسكرى** إلخ المجلد الأول (الحملة) صفحة ٣٨٣.

بعد الألعاب النارية، حولت الإضاءات الباهرة الميدان إلى قاعة رقص شاسعة، حيث راح الجند يرقصون على أنغام الموسيقى النحاسية التى يتخللها من وقت لآخر طلقات المدافع.

وعلى حد قول المعاصرين[1] – الذين تتسم أقوالهم باللهجة المزدرية لتعليقات عبدالرحمن الجبرتى التى يخص بها هذا الحفل الضخم – فإن جماهير الأهالى الفضولية والمتمالكة، قد حضرت هذه الأحداث دون أن يبدو عليها الانبهار. وعلى أى حال إنها لم تنبهر أبداً إلا بعد فرق الجيش، ودقة تحركاتهم وتطور أسلحتهم. وهذه النتيجة غير الكاملة وإن كانت مجدية، هى ما حاول الاستعمار الحديث الحصول عليه، منذ ذلك الوقت، بمثل هذه الاستعراضات للقوات.

ونفس الإجراءات وفى الحدود التى سمحت بها الإمكانيات المحلية، فإن نفس الاستعراض العسكرى قد أجرى بلا تهديد، بمناسبة العيد السابع للجمهورية الفرنسية، فى كافة النقاط المحتلة فى مصر، ونفس الجهود لإظهار الأخوة الفرنسية المصرية، قد بذلت فى كل مكان لنفس الغرض.

وبفضل وحدة وجهات النظر التى استطاع بونابرت أن يقيمها ويحافظ عليها بينه وبين ضباطه، فقد كانت سياستهم المحلية بصفة عامة مماثلة لتلك التى مارسها هو فى القاهرة.

ففى نفس الوقت الذى كانت تقع فيه عملياتهم الحربية أو البوليسية ضد مراكز الثوار، فإن حكام الأقاليم نفذوا التنظيمات الإدارية التى أملاها بونابرت، وأقاموا الدواوين، وقاموا بتعيين الآغاوات، وكونوا فرق الانكشارية. ولقد أصر بونابرت على ألا يبدأوا بالخطأ من جانبهم فى علاقاتهم مع الأهالى. وعندما كان يلاحظ غلطة من جانبهم أو خطأ فى التكتيك، كان يبادر بلومهم. فكتب إلى زايونشك قائلاً[2]

---

(١) راجع خاصة «**التاريخ العلمى والعسكرى المكتوب استناداً إلى شهادات عيان معاصرين**».

(٢) راجع لاجونكيير المرجع السابع المجلد الثالث صفحة ٧٨، ٢ فروكتيدور – ٢٨ أغسطس.

« لا أقر قيامك باعتقال الديوان دون أن تتأكد إن كان مذنبًا أم لا، وأن تقوم بإطلاق صراحه بعد اثنى عشرة ساعة. إنها ليست الوسيلة التى ستكسبهم إلى صفك. يجب أن تدرس الشعوب التى توجد لديها، وأن تميز من هم أكثر ميلاً كى تستعين بهم أو تستخدمهم، يمكنك من وقت لآخر القيام بالردع أحيانًا لكن بصورة عادلة وقاسية، لكن لا تقم أبدًا بما يمكن أن يوصف بالنزوة أو الاستخفاف ».

وحينما كان أحد الزعماء المحليين، الشديد التأثير وسط معاصريه، كان يبدى استعدادًا للتعاون مع الغزاة، لم تهمل أية وسيلة لوضعه فى جانب مصلحة الفرنسيين، حتى وإن كان قد أبدى تجاههم فيما مضى أية مآخذ، وذلك كان الوضع مثلاً مع الأمير إبراهيم الذى عينه كليبر مسئولاً عن إدارة دمنهور وأربع قبائل مجاورة، وقد أسند إليه رتبة أغا ومرتبًا مناسبًا[1].

وحينما بدأ الموظفون المحليون يتصرفون بصواب، سرعان ما تمت مكافأة أمانتهم وإخلاصهم كما تم تشجيع حماسهم بكافة أنواع الوسائل الطيبة. وتلقائيًا، بل وسباقًا لأوامر بونابرت، قام كليبر بمنح مرتبًا لأعضاء ديوان الإسكندرية[2].

---

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابع المجلد الثالث صفحة ٧٨، ٢ فروكتيدور – ٢٨ أغسطس.

(٢) « **كليبر ، حياته ومراسلاته** » بقلم جال بايول، باريس، ديدو ١٨٧٧ صفحة ٣٠١ قرار ٢١ أغسطس ١٧٩٨ : « كليبر، إلى الذين هم الأكثر أمانة والأكثر استقامة بين الرجال، إلى الذين هم زينة كل العلماء، إلى الذين يرتبون وينظمون بأحسن صورة ممكنة كل المسائل المتعلقة بسكان الإسكندرية.. إلخ.. إلخ... اعلموا أيها الأصدقاء المبجلون أنه أخذاً فى الاعتبار أن الأوقات = = التى تمضون بها الشئون العامة يجب الطبع أن تؤخذ على حساب أعمالكم الخاصة، وأنه بالتالى من العدل والإنصاف أن نعوضكم، قررت أن يدفع لكم فى نهاية كل شهر مكون من ٣٠ يوما ما يلى :

إلى الوجيه حاج حسن أبو عوف..... ٤٠٠٠
إلى الوجيه إبراهيم أبو العبير، منفذ القوانيين..... ٤٠٠٠
إلى الوجيه مصطفى الصران، منفذ القوانيين ٤٠٠٠
إلى الوجيه الحاج حسن أبو ال، منفذ القوانيين ٤٠٠٠
إلى الوجيه الحاج حامد ازن أغلو، منفذ القوانيين ..... ١٤٠٠ =

وقد كان أغا الانكشارية يرغب فى عباءة وفرس مزخرف على الطريقة التركية، فقد قام كليبر برجاء بونابرت أن يرسلهما له فى القاهرة، وقد أصر على أن تعاد له الممتلكات التى كانت المماليك قد صادرتها منه[١].

وتمت حماية حجاج مكة فى كل مكان مثلما تمت حمايتهم فى القاهرة. وكان ٢٦٠ حجًا من طرابلس أبحروا عن طريق النيل من القاهرة إلى رشيد، فقام منو بإركابهم على أربعة مراكب إلى الإسكندرية تعلوها الرايات الثلاثية الألوان. وبما أن الأسطول الإنجليزى قد لاحظهم وأجبرهم على العودة إلى داخل الميناء، فقام منو بإركابهم هذه المرة تحت رايات مغربية. وعند وصولهم الإسكندرية، استقبلهم كليبر وزودهم بسفينة كبيرة ليبحروا إلى طرابلس[٢]. ومثله مثل بونابرت، فقد انتهز الفرصة ليرسل إلى قنصل فرنسا مع هذه السفينة خطابًا بنفس فكرة خطابات القائد الأعلى[٣].

وبخلاف حالات الاشتباكات، فإن أمن الأفراد واحترام الملكيات قد تمت حمايتها ضد العنف والتحقير والاختلاس. وقد تزود قادة الجيش الفرنسى فى مصر بروح الإنسانية والأمانة والأخلاقيات العالية. وعندما أدى الأضطرار إلى فرض ضريبة

= إلى الوجيه الحاج قاسم زكبوف، منفذ القوانيين ١٤٠٠
إلى الوجيه الحاج محمد ضيا، منفذ القوانيين ١٤٠٠
وإلى الساعيين ١٨٤٨

(١) راجع بايول المرجع السابق صفحة ٣٠٣، ٢٩ أغسطس ١٧٩٨.

(٢) راجع لاجو نكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٠٦ وبايول المرجع السابق صفحة ٣٠٠.

(٣) راجع بايول المرجع السابق صفحات ٣٠٣ – ٣٠٤. «المواطن القنصل، إن غزو مصر عن طريق جنود الجمهورية الفرنسية لا يجب أن يضع عقبات فى علاقاتنا السياسية والتجارية مع السلطات البربارية، بل على العكس من ذلك، يجب أن تحييها وتوسعها. إن سكان هذه الشطآن سيجدون دائمًا لدى الحكومة مساندة وحماية، وكما فيما مضى، فإن ديانة المسلمين ستحترم بشدة. لكن اليوم فلا هم ولا ثرواتهم سيتعرضون للابتزاز الذى كان يقوم به المماليك المخادعون الأشرار، الذين كانوا يقومون به أيضًا ضد الحجاج أثناء رحلتهم إلى مكة وضد الذين كانوا يعيشون هنا من نتاج صناعتهم وتجارتهم».

على المسلمين، بدلاً من العقوبة، كان كليبر أول من اقترح على بونابرت أن يعيدها لهم عندما تتحسن تصرفاتهم العامة[١]. وعندما وجد أن الانتقامات التى أمر بها بونابرت كانت شديدة للغاية قام بمناقشتها معه بحيث أدت إلى خلاف بينهما. وكتب منو فى نفس الوقت: «لا شك أننا سننجح أكثر إذا ما حكمنا بالعدل والأخلاق... إن استقرارنا فى مصر متعلق بأخلاقيات القادة الفرنسيين»[٢].

وقام نفس الجنرال بالكتابة إلى المنفذ العام سوسى Sucy[٣]، وهو غير راض عن الطابع الضريبى لبعض الإجراءات الإدارية قائلاً: «مع سكان مصر يجب أن تكون صارمًا عادلاً إنسانًا وعبدًا لكلماتك. إذ كان القادة فى كل مكان هنا لديهم أخلاقيات ويعاقبون بقسوة صارمة كل المبذرين سنقيم هنا أول مستعمرة نموذجية فى العالم. وإذا ما وقع العكس، وإذا ما كان القادة سواء العسكريون أو غيرهم، وكذلك مرؤسيهم، ينظرون إلى هذا البلد على أنه أرض للالتهام، فلن نبق هنا أكثر من ستة أشهر ولن نصحب معنا إلا الخجل وكراهية شعوب مصر». ومن بلبيس فى الشرقية، أرسل رينييه إلى بونابرت قائلاً: «لست على استعداد لأن أتحمل من حولى أى نصب أو تزوير، خاصة فى بدايات تنظيم البلد الذى يجب علينا أن نكتسب جانب الأهالى بفضل إدارة رشيدة»[٤]. وعند عشوره على مآخذ فى إدارة الجنرال فيال Vial فى دمياط لم يتورع الجنرال دوج Dugues عن إعلانها بلا أى تأخير لبونابرت وأنهى تقريره بهذه الكلمات: «إن الشخص الذى يتركك تجهل أن الأتراك يكرهوننا فى دمياط يكون مذنبًا، مثله مثل الشخص الذى يتركك تجهل السبب»[٥]. وفى مصر

---

(١) راجع بايول المرجع السابق صفحة ٢٩٩ – ٩ أغسطس.

(٢) ٦ فروكتيدور ٢٣ أغسطس و٨ فروكتيدور ٢٥ أغسطس راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحات ٥١٧ – ٥١٨.

(٣) ٧ فاندمبير – ٢٨ سبتمبر. راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ١١٩.

(٤) ١٧ فروكتيدور – ٣ سبتمبر. راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ١٧٧.

(٥) ١٢ فاندمبير –٣ أكتوبر. راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ١٥٥.

العليا وبينما ديزيه Desaix كان مازال فى فترة الغزو، فضح بعبارات ثائرة حركات بعض اللصوص الذين حاولوا سرقة بعض البضائع من سوق المنيا دون أن يدفعوا ثمنها، وقام باتخاذ إجراءات صارمة ضد هؤلاء الحقراء[1].

فلم يكن إلا لمثل بونابرت أن يعطى، منذ أول لحظة احتكاك بين فرنسا وشمال أفريقيا مع الإسلام، أكمل النماذج لإدارة محلية وسياسة دينية جديدة تمامًا، ومدفوعة إجمالاً إلى أقصى حدود تم تحقيقها آنذاك، وعلى أى حال لم يتخطاها أحد. إلا أن الإخضاع والتهدئة والتحالف التى كانت تهدف إليها هذه السياسة المحلية والدينية، كانت هى نفسها تهدف إلى إمكانية تحقيق الهدف الاستعمارى الذى كان مسنداً إلى الحملة الفرنسية، فى الظروف الأمنية المطلوبة والاستقرار. غير أن تنفيذ نفس هذا المخطط، الذى ساندته على التوالى حيوية بونابرت ونشاطه، لم يمكنه ألا يؤثر بدوره على استعدادات الأهالى تجاه السيطرة الفرنسية.

فرانسوا شارل-رو

* * *

(١) ١٢ فاندمييير - ٣ أكتوبر. راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ٢٢٢.